



الوشم الأخضر

بقلم

هدى حار

إهداء 2005

لـ / إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

الكتاب لما سي

الوقت الخير

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
بقلم: هدى حجاز

القسم الأول



كأنها لوحة ... سماء صافية واسعة مكشوفة يقلل سحابها وضبابها وتكثر شمسها ونورها ، أما البيت المتواضع الذى تشير اليه يد لها أنامل روائية فهو ليس من اللبن كما هو معتاد فى ريفنا الحبيب بل أرقى قليلا . من الطوب الأحمر .

القرية لاتبعد كثيرا عن البندر ، الطريق اليه - أى الى البندر - إما بالكائب وإما بالسيارة وهو شئ يقل حدوته .

صاحب البيت فلاح طويل عريض يرتدى الملابس البلدية ويتعمم بعمامة أنيقة ، مليح الوجه لطيف القسما يميزه شارب فاحم كالجناحين وعيون واسعة كحيلة سوداء أورثت بعدها بنات وحفيدات عيوناً صنعت بالكثيرين .. كثيرا !

زوجه امرأة غضة بضة قصيرة القامة ممتلئة ، تراهن الكثيرون على أنها خالية من العظام أو على أقصى تقدير عظامها فى أمكنة بعيدة لاتدركها العين ولا تحسها الانامل .

بيت سعيد ، فى ذاك الوقت لعله عام ١٩٠٠ .

لنرجع ثانية الى البيت : هو من طابقسين : الاول : عبة حجرات متراصة تكون دائرة ، نقطة ارتكازها منور ، لندخل أولا من الباب . على يمينه مندره سلمها من درجتين لاستضافة الزوار الرجال ، وأخرى أمامها تماما على اليسار للترحيب بالنوع الآخر ، الزائرات .

حجرة أمامية لحزين الغلال ملاصقة لها حجرة أخرى لحزين البيت ، وعلى اتجاه الداخل الى اليمين حجرتان متجاورتان للنوم والراحة ، الحقول الخضراء التى يتباين اخضرارها بين الفاتح والداكن ، تدرکها العين - على مدى أوسع - من الطابق الآخر الذى يشبه الطابق الاول تماما ، لولا أن بعض حجراته عارية تقريبا من الأثاث الا من بعض قطع الحصير التى يستعاض عن الأسرة بها ويفضل النوم عليها صيفا .

آسفة ان كنت قد أشعرتك بطريق غير مباشر بشيء من الدوار ، فقد انتقلت بك من السماء الى الأرض ومن الطابق العلوى الى الطابق الاول .

يدفعنى الى ذلك أننا سنعيش فترة ليست بالقصيرة فى هذا البيت .

صاحبه السيد يوسف .. تاجر ، أحيانا يشتري حدائق ممثلة بالفواكه ثم يبيعها - بشطارته - الى آخر فيكسب مالا حلالا ، وكثيرا ما يزرع أرضه قطننا مصريا ويبيعه للارتزاق ، وهكذا .

على ناصية - الحارة - فلاح آخر لا يقل عنه طولا وعرضا ووسامة ، لكنه يبرزه فى ماله ، استأجر بيتا منه على التربة (للعظ) يختار من يشاء من جميلات البلدة ويصطفيها هناك ، وصاحبنا السيد يوسف يرى ولا يرضى .

والنخوة لاتنقصه فكان يتحرش به ليلا ويسمعه كلاما لاترتاح اليه الأذن . لعلمها الغيرة على الفضيلة أو على النساء .

لكن حدث أن تحول تفكير السيد يوسف - بعض الشيء - الى زوجه ، فقد بشرته بحمل جديد ، وهنا قال فى نفسه : يارب إبقه وليكن طفلا أو طفلة واحدة . فالاجهاض يلازمها دائما ، كم يحز فى نفسى أن أمنح حبنى وحنائى أبناء الغير حتى اذا ما نموا نسوئى !!

ثم تمضى الايام والأشهر ، وتكتمل مراحل الحمل ويقترب موعد الوضع ، فلا يفارق يوسف زوجه حتى تحين اللحظة الحاسمة ، ويرزق طفلة ضعيفة البنية ، لكن جمالها فريد حتى وهى فى طيات اللغائف .

رزق البنات بائنتين ، هكذا كان يردد « يوسف » دائما .

راجت تجارتها ونسى فى غمرة مكاسبه غريمسه الذى يقضى معظم أمسياته فى بيت يطل على التربة .

وشهدت « عائشة » الطفلة السقيمة الحلوة جولات أبيها فى البلدان المجاورة وعرفت أشجار الفاكهة التى كان يتاجر فيها .

وفى الليل تستكين فى حضن أمها الدافئ الغض ، البض .

وعندما بلغت السنة الخامسة من عمرها بدأت أمها تنصرف عنها . إذ كان هناك حمل جديد فى الطريق .

وقد قال يوسف فى ذلك : يبدو أن قطيعا جديدا سيشرفنى لكن هل سينسينى هذا حبنى المفرط للحبيبة « عائشة » ؟

قالت « عائشة » فيما بعد بسنوات طويلة : اذكر الليلة كالحلم :
أمى فى فراشها تنازع وتناضل (والقابلة) بين يديها وتحت أرجلها
تستحشها وتهون عليها - لم يبق الا القليل أيتها المريضة الغالية - وأبوه
هناك فى (الحوش الخلفى) يروح ويحىء، ويحىء ويروح، ويتنهد وبخاطب
السماء وعائشة بين الاثنين حائرة ضاللة قلقلة حتى استقر بها المقام فى
الحجرة التى تتمدد فيها أمها. ثم يعلو صراخ ولطم تسمعهما من القابلة.

ماتت الام مع الطفل الوليد بسبب عسر الولادة !

الحزن يخيم على البيت المميز ذى الطوب الاحمر .

وتنمو لمية السيد يوسف وتقل مشاويره للبلدان المجاورة وينسى
تماما جاره الغزل .

ويتحول قلبا وقالبا الى « عائشة » يطعمها بيديه ويسقيها ويغير
ملابسها وينام فى حضنها البرىء البارد ، وتلف هى ذراعها حول رقبتنه
الغليظة وتحتمى يشاربه الكشاخشن، وعندما تصرخ فى الليل منادية أمها
يقول مهدئا : عندما يطلع النهار سأخذك الى البندر لأشترى لك الحلويات
وتشاهدن الأراجوز ، فتهدأ قليلا قليلا ، ويخفت صوتها بين النشيج
المتقطع والتنهدات الوجلة .

عم « عبده » رجل أسمر لوحته شمس القرية ، جسمه ضئيل ووجهه
لا يسمعك عندما تلمحه الا أن تضحك بملء فمك ، لماذا ؟ لا أحد يدرى .

وعم « عبده » هذا (ابن الإيه) له زوجة غاية فى الجمال أنجب منها
ثلاث بنات أجمل من أمهن وكلهن حبيسات الدار.

فلما سمع بفجعة السيد يوسف بفقد زوجه العاقلة المطيعة تطوع
بزيارته كل مساء - تقريبا - لتسليته ومداعبته ، وكان لا يخرج من عند
« يوسف » الا عندما يلوح الابتسامة تطل من تحت ثماربه ، فيخرج من
عنده محملا ببعض خزين البيت مرتاح البال .

وقال له فى مرة : يا سيد يوسف ، الدار اذا ما خلت من النساء
أصبحت قائمة ثم «عائشة» الصغيرة تحتاج لرعاية امرأة ، سأطوع
باحضار ابنتى الصغرى « محاسن » لحديثها ، والله لم تخرج ولا واحدة
من بناتى من الدار الا للضرورة، وعلى أية حال لولا غلاوتك عندى وظروف
« عائشة » لربما ترددت .

ويفكر « يوسف » مليا في قول « عبده » ويستصوبه فيرحب
بالفكرة .

وتجيء محاسن في العشرين من عمرها شقراء - وهو أمر نادر -
ويبهت السيد يوسف لمراها فقد كانت مليحة حقا .

ولا تفوته التكتة فيسر في أذن « عبده » همسا : هيه . من أين لك
زرقة العينين واصفرار الشعر وانت ذو الوجه الهباب والميرون الوارمة ؟

ويتصنع « عبده » الغضب ويقول : والله يا شيخ كانت أمي تقول
لي اننى وأنا طفل - كانت عيوني زرقاء وشعرى ذهبيا .. آه من الفقر
وبلاويه !

ويجيبه السيد يوسف بضربة على قفاه مداعبا قائلا : خبيك الله !

تنتقل الأسرة المكونة من فردين وثالث - احتياطي - الى حياة
جديدة متغيرة ، هذا التغير كان أكثر وضوحا بالنسبة لـ « عائشة » .

تستيقظ في الصباح وتجالس أباهما وتشاطره لقعة الافطار ، أما
« محاسن » فهي تنتقل من حجرة الى أخرى لتكنس الدار وتسقى الطير
وتعلف البهائم .

نظرات السيد يوسف تلاحق «محاسن» وأحيانا تستقر على الأرداف
والضفائر الذهبية المنسابة بهمجية على صدرها الكروي البلورى ، أما
ساقها الملفوفتان - لفة بلدى - فانه يلمحها عندما تنهيا لتنظيف ما
تحت الكنب .

و « محاسن » ترعى « عائشة » بعناية : فهي اذا ما حاولت التهرب
من وجبة الفداء - وهى السقيعة الرقيقة - تلح عليها «محاسن» بصبر
جميل حتى تفلح فى النهاية فى أن تلتهم الصغيرة كل ما أمامها ، كل هذا
أمام السيد يوسف الذى يهز رأسه مرات متوالية على حنان لا يختلف عن
حنان الأمومة من واحدة ليست أما ، والشيطان شاطر . وفراش السيد
يوسف لا تنجح عائشة فى تدفنته بجناحيها الخاليين من الريش الناعم
الكثيف !

و « محاسن » - الله يجازيها - مليحة أكثر مما يجب وصبية فى
عز الصبا .

حادث طبيعى بل ويجب أن يكون طبيعيا أن تمتد يد « يوسف »

التي تشبه - الحنف - لتسوى ضفائر « محاسن » وهي نصف جالسة ،
فقد لمست أطرافها الأرض المتربة .

وتقفز « محاسن » باضطراب وخوف يشعلان لهيب « يوسف »
المستقر الحزون فيطاردها ولا تجد « محاسن » ملجأ تحتوى به إلا
« عائشة » .

وهنا تبدأ العاصفة في الاستقرار وينسحب السيد يوسف الى ركنه
متمتما : اللهم « اخزيك » يا شيطان !

ع الربق يقرع « عبده » الباب ويصبح على صاحب الدار الذي يقرئه
السلام ، ويشاهد الاثنان ينتحيان ركناً من الطابق العلوى ، ويتنهّد
« يوسف » ثم ينسحب ركن فمه ناحية جاره وترسم ابتسامة هلالية ،
أما عبده فينفّج فمه على آخره وتظل أسنانه المفلوجة المبعثرة وينحنى على
يد يوسف مقبلاً .

نعم ، تماماً كما يتبادر الى الذهن ، مرة ثانية حادث طبيعى مشروع
على سنة الله ورسوله .

عائشة تخدم وترعى ، أما يوسف فسيخدم أيضاً ويرعى و ...

صباح جديد مشرق جداً للسيد يوسف .

وبعض الاشرار لـ « عائشة » ، تجد نفسها بعد لقمة الصباح
- كدأبها - على ناصية الحارة تلاعب الصبية والبنيات « عساكر وحرامية »
ثم تثوب الى البيت تبحث عن أبيها فلا تجده ، وتبحث عن خالتها
« محاسن » فلا تجدها .

لكنها عندما تعثر عليهما تجدهما معا !

وتتسح ملابسها ويتعفر شعرها الفاحم وهو شيء لم تتعوده ، فتلجأ
الى خالتها التي تنهرها دائماً - حينما يكون السيد يوسف خارج الدار
فتنزوى الصغيرة فى ركن وتلاعب قطنتها وتشكو لها وبخاصة عندما تلمحها
مستكنية وهي ترضع صفارها .

شيء جديد ، شيء جديد تحسه « عائشة » السقيمة ، التي تشبعها
لقمة حنون ، أن تتلمظ أمتعاًها من الجوع ، وحبّة خالتها فى ذلك : انتظري
حتى يحين موعد مجيء أبيك !

— مسروعة على ايه ؟

وحول الطبلية يلتف الثلاثة وأحيانا يتغير المنظر حينما يجلس « يوسف » ابنته على ركبتيه وينظرة حادة من « محاسن » واهتزاز خصرها (ولوية) رقبتهما تتدحرج عائشة من (حجر أبيها) وينكس « يوسف » رأسه .

ويتكرر التصرف نفسه عندما يحشو « يوسف » قم ابنته ببعض اللقيمات .

شيء آخر استجد بالدار وهو ضرب محاسن لعائشة وشد الشعر والركل بالقدم اذا ما بدا من عائشة أى تصرف غير لائق وأحيانا يكون لا تقا !

وفي أكثر الأوقات تهرب عائشة الى جارتها الحاجة حسنية لتلاعب ابنتها (سيده) وتذوق طعم الفطير الذى افتقدته ونسيته تقريبا منذ وفاة أمها .

ليس هذا فحسب ، بل الضيف أو الضيفة الجديدة التى ستشرفهم بمجيئها عندما يتم حمل الحالة محاسن هو ما كانت تخشاه الحاجة حسنية، وكثيرا بل وكثيرا جدا ما همست فى أذن محاسن ناصحة وهى تقول لها:
— عائشة طفلة هادئة يتيمة لا تحتاج منك الا الى كلمة حلوة وبعض الرعاية .

لماذا تحولت بعد أن أصبحت زوجة أبيها ؟

وترد محاسن بدلال مشوب بعصبية وكبرياء :

— تحمد الله على أننى أرعاها وهل أنا ملتزمة ؟

وتستنكر الجارة الحنون قولها قائلة :

— هل نسيت أنك لم تجيئى الدار الا لتربيتهما ؟

وتضحك محاسن هازئة وتقول :

— وأنت ، هل نسيت عمر أبيها الذى يكبر أبى ، كل شبان البلدة يعرون ورائى وتقاطعها الحاجة :

— لكنهم ليسوا تجار قطن أوفواكه مثله ثم طبيته وسمعته، والرجل لا يصيبه سوى طبعه وجيبه .

وتنهى محاسن المناقشة قائلة :

— هل اشتكت لك منى (اليت عائشة) ؟ واحدة غيرى لربما تصرفت معها تصرفا آخر !

قالت الحاجة حسنية لابنها الجدع الطيب حامد عصر يوم هادى :
— خلاص أصبح السيد يوسف أبا لبنات فقد رزق طفلة جديدة اسمها عنايات لهفى عليك يا عائشة !

ثم تقرب فمها من أذن ابنها قائلة :

— هل حقيقة هذه الاشاعة ؟

ويرد بكبرياء الفلاح :

— دعينا من سير الناس !

عنابات ، قطعا جميلة بل وأكثر من جميلة ، الاب وسيم ، وجيه والام أدارت رموس شباب البلدة !

ولبن الام صبي أضفى على البنات صحة وعافية .

ويكثر انزواء عائشة ويزداد وزن عنابات .

وتنفث محاسن عطرها الياسمينى لابنة بطنها وتكثر من اعطاء ابنة غريمتها خبزا جافا وجبنا « قريشا » !

وفى يوم جاءتهم الحاجة حسنية زائرة وشاهدت عائشة بجانب الفرن تمسك بيدها الصغيرة الدقيقة الحجل قطعة خبز جافة جفاف الخشب تقرضها مع جبن القريش ، ولما التفتت ناحية أمها الروحية الحاجة حسنية مع التفاتتها ولهفتها وقعت منها قطعة الجبن وأمتزجت بتراب الفرن الرمادى ، ولحنتها خالنها محاسن ، فانقضت عليها كالمسعورة وأشبعتها ضربا وقرصا والبنية تبكى وتصرخ وتولول :

— حرمت يا خالتي ، تبت يا خالتي فى عرضك يا خالة حسنية ،
قولى لها ان ترحمنى !

وغلى الدم فى عروق الحاجة وقد أحست انها بطريقة غير مباشرة —
قد تسببت للصغيرة فى آلام جديدة .

وجرت بدورها ناحية الطفلة عنايات فوجدتها تتلذذ بالتهام قطعة

من الفطير المغمور بعسل النحل ، فخطفت منها ما تاكله ومزجه بتراب
الفرن وقالت بوحشية :

— حرام عليك يا فاجرة هذا الظلم ، عائشة يزداد هزالها وابنتك
تزداد سمنة حتى تكاد تتدحرج كأنها الكرة وكل هذا من خير ولى نعمتك
يوسف !

فامسكت محاسن بشعر المرأة وطرحتها أرضا وبصقت عليها قائلة :

— تقولين لى يا فاجرة لماذا تفرن منى ؟ هه لان زوجك يمتدحنى .

وقامت الحاجة بعد أن هزلت من الضرب .

— لا ، ليس زوجى العفيف بل الآخر يماثلك فجرا .

ثم تهدأ العاصفة فجأة لان السيد (يوسف) وجد بينهما دون ان
تحسبا به .

وترقبه محاسن وقد أربد وجهه وجعلت عيناه ثم أمسك بتلابيب
الحاجة حسنية ، وجرها من يدها الى المندرة وأشار اليها أن تجلس وفاجأها
قائلا :

— حالا ، وبدون إبطاء أخبرينى عن اسمه ؟

— من ، من تعنى ؟

وبصوت بارد قال :

— الذى تتهمين محاسن معه .

وتلجج صوتها وابتلعت ريقها بصعوبة وقد أحست بأنها صنعت
أكثر مما كانت تريد ، ولم يسعها القول فسكتت .

وهنا قرب يوسف وجهه الصبوح منها كأنه يطيب خاطرها بمس أن
أحس بأنه كهر بها :

— لاحظت تصرفات غير عادية تجرى فى هذا البيت ، هيه ، تكلمى
لعلك تصنعين لى جميلا .

وصرخت المرأة :

— لا ، لن يكون هذا عن طريقى .

وبادلها الصراخ قائلا :

— اذن لماذا تفوهت بهذه التهم ؟

ودون أن تمى وجدت نفسها تقول :

— لأخيفها وأعدها حتى تخفف من طلبها للصغيرة اليتيمة التي
فقدت أمها ومن ثم فقدتك !

وينكس رأسه ويسمع الضربات المتوالية على رأسه والطين الذى
يكاد يسد سمعه ويترنم : الغالية عائشة •

أحيانا ، بل وكثيرا عندما يحتلم الغضب فى أنفسنا ولا نستطيع
إزائه تحمله يتخذ صورة الهدوء الذى يتحول الى ذهول من هول المصاب •
وفى هدوئه الذاهل يقول لها : اذهبى الى بيتك أيتها المرأة الطيبة •

القرية تفل ، والأفواه تتسع ، والرموس تتقارب ، والنسوة شامتات
حاقداً على الكبيرة وعاطفات على الصغيرة اليتيمة •

وهناك على ناصية — الحارة — الفلاح الآخر الذى لا يقل عنه طولا
وعرضا ووسامة لكنه يبرز فى ماله ومنه استأجريت على القرعة (للحظ)
يختار من يشاء من جميلات البلدة ويصطفيها هناك •

يرى شبح رجل فى المساء يطوف حول البيت حتى مطلع الفجر ،
حدث هذا أكثر من أسبوع وفى خاتمته وبداية الأسبوع الجديد تسمع
رصاصا ورصاصتين وثلاثا •

البيت المميز ذو الطوب الاحمر تحتله امرأة يافعة تحمل على كتفها
طفلة سمينة ترنو اليهما صغيرة أخرى اكتمل يتمها •

وبعد أيام قليلة تنتقل الصغيرة الى دار أخرى غريبة عنها لكنها
تميز بأحضان دافئة وعيون حانية وصدور وخيمة •

تقول الحاجة حسنية لزوجها : لولاي ما حدث ما حدث •

ويرد قائلا : كل البلدة كانت تتكلم •

الحاجة حسنية : أعرف لكننى السبب المباشر •

الرجل مدمما : قل لى يصيينا الا ما كتب الله لنا •

الحاجة : هيه ! والله قدم البنت خير •

ويتهلل وجه رجلها السمع ويقول : شريكى المخالف صالحنى
وازداد كسبنا من كان يصدق ؟

الزوجة وهى تقوم لتجهيز العشاء: ربنا يحميها ويصبر والدها الذى
فى السجن .

اتخذت عائشة من صديقتها سيده ابنة حسنية اختا ثانياة شاطرتها
الفراس والطبلىة ورافقتها فى الحارة ولاعبتها (السبجة) .

حتى فى أيام الأعياد كانتا ترتديان القماش بلون واحد (والتفصيله)
واحدة .

وكانت تشجع أحيانا فتسأل خالتها حسنية عن أبيها ولماذا لاتراه
فتقول لها المرأة الطيبة : تعلين أنه يتاجر فى الفاكهة .

وتكمل لها الطفلة اختلاقتها فتقول : وكان يأخذنى معه .

– لكنه فى هذه المرة سافر الى الصعيد .

– وهل سيطول غيابه ؟

– الله أعلم .

دنيا عائشة لم يكن فيها الا الحاجة حسنية وابنتها سيده والاخيرة
التي تكاد تائلها فى العمر تقترح عليهما أن تذهبا هناك الى الفجرية التي
فى أطراف البلدة لتدق لهما الوشم الأخضر ، سيده تحلم بوردة على
رأسها وتغرى عائشة (بطبع حسن) على الجبهة ، وتقول لهما الحاجة
حسنية – حينما ترجعان الى الدار بعد المغرب – والله عال اذن فقد نفدت
غرضك يا بنت ! غير معقول أن تكون عائشة صاحبة الفكرة . من أين لك
بسداد الاتعاب ؟

ثم تلتفت بطريقة تلقائية لشاهد (مشنة العيش) هابطة ، وتقول
الآن فهمت كل شيء، تعالى يا لعينة، وتغلى عائشة وجهها بيديها ثم تنقلهما
الى أذنيها حينما تسمع طرقعة الأقلام التي تنزل على «سيده» المحصورة
بين يدي أمها ، لكنها (عائشة) تنهل فى صباح اليوم التالى عندما تلمح
نظرات الحاجة الحنون ثم وهى تعقب على الحادث قائلة : والله وعملتوها
ياولاد الإيه ، الوشم حياكل من ذراعك (حنة) يا سيده .

يقول زوج الحاجة حسنية همسا وهو جالس القرفصاء أمام باب الدار على يمينه قلة مملوءة ماء مرطبا بالنعناع :

— وآخرتها يا ولية فى البت عائشة ؟

— خير ، يا حاج ماذا تعنى ؟

— هيه يا مربى فى غير ولدك يابانى فى غير ملكك !

وترد جادة :

— هل تضايقنا ؟ تضايقك عائشة ؟

ويطوح راسه الذى وخطه بعض الشيب ويقول :

— لا أعنى شيئا بالتمام لكن ما ذنبنا نحن ؟ ألن يجيء عليها يوم تصبح فيه عروسا تحتاج لجهاز ومصروفات ، ليس لها عم أو خال ، والام ماتت • وأبوها فى السجن ، اذن فقد أصبحت دارنا ملجأ لليتامى •

وتستدير الحاجة ناحيته رابطة على ذراعه مهدئة :

— اللى يعمل الخير يلقاه •

ويفاجئها بقيامه مدمدما :

— الذى يسمع كلام النساء يستحق ما يحدث له ، لن أسكت ولا بد أن أبت فى الأمر ، واليوم خير من القد •

يجيء عم نجيب الحولى ، صديق الحاج كعادته يتناول العشاء ويختمه بكوب الشاي الداكن •

لكن الجديد أن عائشة ترقبهما أيضا حينما تضبطهما ينظران إليها بل ويطيّلان النظر : لماذا ؟ أسبب الوشم اللعين ؟ يجوز •

وتبتدد الحيرة حينما تهمس الحاجة فى أذنها قائلة :

— ألم تسمعى عن مصر ؟ ستأكلين الفاكهة الكثيرة وترتدين الملابس الملونة أجمل من ثوب خديجة الأحمر الذى أعجبك ، أما عن الحلويات فستشربين الماء بكثرة بعد أن تكثرى من تناولها ، والشرائط الملونة ستحلين بها صفائر شعرك الغزيرة و ...

وتتسع عينا عائشة ويزداد سوادهما وبياضهما ، وتمشى خطوات

بطيئة الى الخلف ، وتضع يدها على فمها الذى انفتح قليلا ثم ترتعش
خندوها ويختلج ذقنها وتلمع عيناها ثم تشيح بوجهها •

كلما تعلقت بفرد اما أن يهجرها أو تهجره لماذا ؟ لماذا ؟

وتكمل الحاجة حديثها الذى لم تلتقط منه عائشة الا القليل الهام
مثل عائلة فريد باشا وتركب القطار ، وتأخذ قروشاً فى يدها لتشتري
الحلوى والحاجة ستزورها هناك فى مصر •

ولم تسمح الباقى فقد جرت مذعورة تماما كالقطة البيضاء المرقطة
ببقع سوداء • حينما يطاردها الصبية فى الحارة محاولين امساك ذيلها •

وتتذكر منظر سيده فى (حجر أمها) وهى تتحسس جسمها
وتنظف شعرها بأناملها ثم وهى تلاعبها ، وأحيانا تطعمها بعض المأكولات
كالقشدة •

ولما تلمحها عائشة - خجل - تبرق عيناها فترتبك الحاجة ثم تمد
لها يدها أن تعالى وشاركينا فى لقيمت القشدة •

الحاجة حسنية - طيبة حنون ، لكنها تختلف عن أمها وأبيها وهى
لا تغدق عليها المأكولات الا عندما تضبطهما - هى وابنتها •

أما الحاج فهو ينظر اليها شزرا ، لكنه لا يؤذيها كخالتها محاسن ،
ترى ابن هـى وشقيقتها عنايات ولماذا لا تزورها ؟ كم هـى الفاز لا تقدر
على حلها !

ويمر بخاطرها أيضا بعض الليالى التى باتتها جائمة •

لكنها مرة تشجعت وهمست لسيدة بأنها تريد بعض اللقيمت ،
ولكن «سيدة» التى تشاركها فى النوم على الحصر تلتكزها فى جنبها وتقول !
- نأى ولتدعنى أنام !

قد تكون مصر ملأى بالخيرات ، وأبوها أفلى يعود ؟ ولماذا ؟ • عندما
يجى ذكره وتكون موجودة مصادفة تنخف الاصوات • ثم تنقطع •

آه لو تستطيع أن تفهم ! والاجابات دائما عندما تكبرين سوف
تعرفين كل شىء فمتى تكبر ؟ متى ؟

القسم الثاني



ياه ! القطار كبير وطويل وله ضجيج وصغير وعندما أطلت من إحدى نوافذه - مبهورة - لترى بقية العربات وهي متخذة شكل القوس ارتسمت الابتسامة على محياها الا أن يد الخولى « نجيب » أرجعتها ثانية الى مقعدها الخشبي . لكنه لم يمنعها من أن تنظر فقط من مقعدها لترى الحقول المترامية الاطراف كأبسطة (عم العمدة) التي يزين بها داره ، ها هي ذى الابسطة تعدو سريعا عدوا عكسيا . وأعمدة النور من قوة جريها تكاد تتخطى بعضها فى بعض ! يا سلام ! ان السفر بالقطار متعة، ليت « سيده » معها لتشاركها فى فرحتها وأبوها ترى أين هو الآن ؟ وهل سيفاجئها يوما بالحلويات كما كان يفعل دائما ، وعلى ذكر الحلويات ، الحاجة حسنية وعدتها بأنها ستتناولها بكثرة تضطرها لشرب المياه لتحد من حلاوتها ، يا رب ! تكون عائلة « فريد باشا » طيبة يارب .

يلتفت ناحيتها «نجيب» الخولى ويقول فى نفسه . انها حديثة السن جدا وسقيمة ترى بماذا ستفعلهم ؟ وجهها حزين (مخطوف) وحركتها بطيئة مدعورة .

المهم ما على الرسول الا البلاغ. ما أكثر الفتيات اللاتي جئن عندهم! أخشى أن تقل أتعابى هذه المرة ، ثم نعم فيها النظر ويقول : أتمنى الا تكونى نحسا على !

كم كاد يصيبها الدوار فى أكثر من مرة ، العربا الخنطور مثلا . يبدو أن عم « نجيب » وجل ثرى ، لكنها لم تدر أن ضمن أسباب ارتفاع الأتعاب (عدة المواصلات) .

يقترب الخولى من البوابة الخارجية للقصر الكبير الذى يمتلكه « فريد باشا » وتشاهد عائشة (البواب فى كشكه الخارجى) يقف مبتسما ويسلم على « نجيب » الخولى ويقول مرحبا :

— أهلا ضيفة جديدة يا مرحب !

وتساق عائشة من يدها ، لتلمح على اليمين (سلامك) بدرجتين من الرخام وهى حجرة مؤنثة بأثاث خفيف جميل ليستقبل زوار الريف من رجال العزبة الى العمدة .

والطابق الاول مكون من صالون على يمين الداخل لاستقبال الانسات من الزائرات وامامه تماما على يسار الداخل صالون ثان لاستقبال النساء وحجرة ثالثة فى مواجهة الداخل لاستقبال المدرسين الخصوصيين .

وعائشة كالحالمة تتلفت حولها وتقول فى نفسها : لابد أنها احدى الحوايت التى كنت أستمع اليها من أمى والحاجة حسنية، انه بيت الشاطر حسن وست الحسن والجمال ! هذا لا شك فيه !

يسير السفرجى بخطوات رشيقة ويلمح « نجيب » ومعه الفتاة الصغيرة فيقول له ناهرا بلهجته السودانية : ألم نقل لكم أكثر من مائة مرة أن تبقوا فى السلامك حتى تجيء (ست الدادة) لتأخذ الطفلة ؟ فريب حقا مع أنها ليست المرة الاولى التى تشرفنا فيها بحضورك .

ويضحك الخولى قائلا : قلبك أبيض، كنت أبحث عن زميلك الطاهى . ويرد عليه بكبرياء : الطاهى يا ذكى فى مكانه الطبيعى فى المطبخ .

وفجأة تخرج من صالون (الانسات) فتاة مليحة بيضاء ذات شعر ذهبي معقوص الى الخلف وتشاهد عائشة فتجربى ناحيتها قائلة :

.. تعالى يا شاطرة ما اسمك ؟

وتأملها عائشة ، وترى الثوب الغالى الابيض المطرز بالورود وتنفرج شفاتها لتحاول أن تنطق باسمها فلا يسمع لها صوت .

وتطل من عيني « نبيلة » ابنة الباشا نداءات حنون رقيقة وتقول همسا للخولى :

.. كم عمرها ؟

فيقول مرتبكا : لعلها فى الثامنة .

.. بالله عليك ما الذى تستطيع أن تقوم به طفلة فى هذه السن ؟

.. الذى أبلغنى قال : يستحسن أن تكون صغيرة .

.. نعم ، يعنى فى العام الثالث عشر أو الخامس عشر من عمرها أما

هذه فلا تستطيع أن تمسك بكوب ماء .

وَتَسْمَعُ عَائِشَةَ وَتَفْهَمُ وَتَرْقُبُ الْحَوْلَى وَالْفَتَاةَ الْجَمِيلَةَ وَتَقُولُ فِي نَفْسِهَا : لَيْتَنِي أَرْجِعُ ثَانِيَةً لِأَنَامُ وَالْعَبَّ مَعَ سَيِّدَةٍ ، هَذِهِ السَّرَايَةُ كَبِيرَةٌ جَدًّا وَبِهَا نَاسٌ لَا أَعْرِفُهُمْ وَأَخَافُهُمْ لَكِنَّ هَذِهِ الْجَمِيلَةَ أَرْتَاحُ إِلَيْهَا •

لِمَاذَا لَمْ تَعْطِنِي حُلُوبَاتٍ ؟ • حُلُوبَاتٍ ؟ أَنْتِي جَائِعَةٌ ، آه لَوْ أَتَنَاوَلُ قِطْعَةً جَبِينٍ (يَخِيرُهَا) (وَعَيْشٌ خَاصِي) !

وَنَبِيلَةُ الْإِبْنَةِ الْمُدَلَّةُ تَحْمِلُ قَلْبًا وَادْعَا حَنُونًا ، وَيَبْدُو أَنَّ فِكْرَةَ طَرَأَتْ عَلَيْهَا لِأَنَّهَا بَعْدَ أَنْ اسْتَدَارَتْ لِتَرْتَقِيَ السَّلَالِمَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى حِجْرَتِهَا بِالطَّابِقِ الثَّانِي قَالَتْ مَخَاطِبَةُ الْحَوْلَى :

— اسْمِعْ يَا عَمَّ نَجِيبٍ ، هَذِهِ الْفَتَاةُ مَا اسْمُهَا ؟ عَائِشَةُ ؟ أَرِيدُهَا أَرِيدُهَا لِنَفْسِي إِنْ وَجَّهَهَا يَجْعَلُنِي وَأَرْتَاحَ لِلنَّظَرِ إِلَيْهَا •

وَقَالَ الْحَوْلَى مَتَهَلَّلًا :

— أَذِنَ فَسَاجِيءُ لَكُمْ بِأُخْرَى مَا دَامَتْ هَذِهِ لَمْ وَلَنْ تَوْدِي مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهَا •

رَدَّتْ نَبِيلَةُ وَهِيَ مَدْبُورَةٌ :

— لَيْسَ هَذَا شَأْنِي ، حَادِثٌ مَامَا فِي ذَلِكَ •

كَانَتْ عَائِشَةُ جَائِعَةٌ ، لَكِنَّهَا الْآنَ وَمَعَ سَيِّدَتِهَا نَبِيلَةَ تَطْعَمُهَا بِيَدِهَا شَيْئًا صَغِيرًا جَافًا نَاعِمًا وَبِهِ سَكَّرٌ كَثِيرٌ تَلْتَهُمْ مِنْهُ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ الْآخَرِ وَتَسْمَعُهَا تَقُولُ مُشْجَعَةً :

— هَلْ أَعْجَبَكَ الْـ ...

مَا هَذَا الْاسْمُ الْعَجِيبُ ؟ لَمْ تَسْمَعْ بِهِ مِنْ قَبْلُ •

وَالْحَجَرَةُ وَاسِعَةٌ وَالسَّرِيرُ عَرِيضٌ وَطَوِيلٌ وَعَلَيْهِ فَرْشٌ أُنِيقٌ وَ ... لَعَلَّهَا مَنُضَّدَةٌ تَحْمِلُ فَوْقَهَا مِرَاةً كَبِيرَةً جَدًّا تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا خَيَالَاتُ الْآثَاتِ ، لَكِنَّهَا دُونَ أَنْ تَمَى تَجْلِسَ عَلَى الْأَرْضِ مَنُهَوَكَةٌ •

وَتَسْأَلُهَا نَبِيلَةُ : هَلْ لَكَ أَخَوَاتٌ وَأَخَوَةٌ ؟

وَتَهْزِ عَائِشَةُ رَأْسَهَا وَأَخِيرًا يَخْرُجُ صَوْتُهَا : لِي أُخْتُ وَاحِدَةٌ وَأُمُّهَا لَيْسَتْ أُمِّي •

وَتَلْتَفَتَ إِلَيْهَا نَبِيلَةُ وَتَسْأَلُهَا ثَانِيَةً : وَأَبُوكَ ؟ هَلْ هُوَ بَخِيرٌ ؟

وتصمت فجأة عائشة ثم تقول : الحاجة حسنية قالت : آله مسافر
الى الصعيد ومضى وقت طويل لكنه لم يرجع .

وتؤخذ نبيلة وتقول فى نفسها : هذه الأسئلة - الأجوبة عليها
استطيع أن أستخلصها من نجيب نفسه .
أحسن أن هذه الطفلة سيكون لى معها دور كبير .

استطاعت عائشة بعد أشهر قليلة أن تلم بكل شىء تقريبا : السراى
عرفت أنها من عدة طوابق الطابق الاول اجتازته فى أول يوم من مجيئها
والطابق الثانى به حجرات نوم أفراد العائلة ، الأولى لنبيلة الشابة الحلوة
والثانية لعادل الابن الأكبر الأسمر المدلل المتعجرف الشرس ، والثالثة
لربة الدار، أصلها نصفه تركى والنصف الآخر مصرى، أما صاحب السراى
فلم يبق منه الا اسم لأنه مات من عدة سنوات .

أعلى الطوابق (سطوح) يحتوى أيضا على حجرات .

حجرة أولى للغسيل وحجرة ثانية للمكوة وحجرة ثالثة للحياكة
وأخيرا (حمام ومرحاض) .

أما الارض الواسعة التى خلف السراى فيها الجراجات التى يعلوها
حجرات نوم الخدم من الرجال .

لم تكن عائشة هى الوحيدة (من الاناث) اللاتى يعشن داخل السراى
بخلاف صاحباته ، كانت هناك من أرضعت (عادل) ويطلق عليها اسم
(ست الدادة) وأخرى أرضعت نبيلة تنادى (ست الهانم) هاتان عدا
حائكة بسيطة لتخيط الفسيل بعد تجفيفه ثم تذهب به الى (المكوجى)
الذى يقيم إقامة دائمة فوق السطوح ولقب (مكوجى العائلات) -حين ذاك-
يطلق عليه بحق .

فى الواقع لا تستطيع أن تقول : ان مهنة عائشة خادمة، لكنها كانت
رفيقة لنبيلة ، ولم يمنعها هذا - من أن تطلع - بدافع الفضول أو الموهبة
على جميع الأعمال التى يقوم بها كل هؤلاء الخدم .

فى غمار سردى نسييت السائق والجنائنى وصبيان الطاهى الخ .

نعم عز ، واكل اوز . بل لعل الاوز حين ذاك كان من الماكولات
الشعبية .

لكن ما جعل عائشة حقيقة تذهل وتكاد تصمق طريقة تجهيز
الوجبات : الموضوع يحتاج لشرح واف منى .

وثقة منك أيها القارئ العزيز الذى ستلازمنى حقبة طويلة مع هؤلاء الناس :

الطاهى يقيم فى البديوم ، لكنه ليس كالبيدرومات التى قد تتبادر الى ذهنك ، فهو طابى رائج نظيف منسق ، كل ما تأخذه عليه هو موقعه .

المهم للطاهى الذى يصل ويحول فى مملكته جرس يسمع رنينه حينما تتلمظ أمعاء أصحاب السراى ، أقول السراى ، لا ، الدار ، تطلب - مثلاً - وجبة الغذاء .

تعال معى لنشاهد ما يحدث : حبل يتدلى من بكرة ، والبكرة مثبتة فى السقف ، لنرجع ثانية للحبل: انه مشبوك فى دولاى صغير لعله أكبر قليلاً (من الكوميدينو المعروف) هذا الدولاى الصغير (المحندق) اللطيف به أرفف خشب ترص فوقها أطباق بها أكثر الأطعمة وأشهاها تصل الى الطابق الأول به حجرة الطعام ، بالكيفية الآتية ، عندما يشد «السفرجى» الحبل من عنده .

المنظر والعملية تكاد تشبه طريقة صعود أو هبوط المصعد (الإسانسير) هل فهمت شيئاً ؟ أرجو منك ألا تقول لا !

لها الله عائشة . . من حياة الريف السهلة البسيطة الطبيعية الى نراء وبذخ وتخمة !



نمت عائشة وترعرعت وامتلا خذاها ولمت عينها وكاد الحزن يفارقها . فى السنة الأولى زارتها الحاجة حسنية مع ابنتها سيده ، لكنهما فى هذه المرة دخلتا من الطريق الصبح من البوابة الخلفية ، ولم يعيدا الخطأ الذى ارتكبه عم نجيب عندما جاء - لأول مرة - بعائشة .

فى العام الثانى تعلمت عائشة كيف تقرأ وتكتب ، وذلك للملازمتها الدائمة لسيدتها نبيلة حتى حين تتلقى الدروس من المدرسات الخصوصيات كانت تقبع فى الركن . تسمع ، وتعى .

بدأت أناملها باللعب على البيانو حتى استطاعت أن تعزف بعض المقدمات الموسيقية .

وفى العام الثانى أيضاً اختفت من لهجتها بعض الحروف الغربية التى كانت تنطقها - دائماً - حينما كانت تقيم فى القرية .

وفى العام الثالث قالت لها الحاجة حسنية : البقية فى حياتك فى أيبك .

أحبها الطاهي والسفرجي وبعض الصبية الدائمين في السراى .
وابتسمت لها كثيرا (عقيلة هانم الست الكبيرة والدة نبيلة وعادل)
وصادقت الحائكة الصغيرة البسيطة والاخرى الأنيقة التي كانت تخطط
اثواب الأم وابتنتها .

حتى (صانع المساج) وهو من الزوار الدائمين للسراى .
داعبها واهدى لها بعض الحلوى .

عادل كان ينظر اليها بحدّة ذكرها بالحاج والد سيّدة ، لكن الاول
كان ينهرها دائما ويقول : كلما أسير في طريقى أجدك ما هذه الزبالة ؟
الست نبيلة تقول دائما عنه سواء لها أو لغيرها لا يعيب (عادل)
سوى عصبيته ، لكن عائشة - بمفهوما - تقول لنفسها : طبعا انه أكثر
من عصبى ، انه كويه وسمح وكل من بالسراى يخافه ويهابه .

ومثل أن عبر لها عن رايه فيها (الزبالة) وهى تختفى عن ناظريه
بأسرع من البرق وتختار ركن (الأوفيس) وهو طرقة ضيقة تجاور
المطبخ ، أو تلتصق ببعض الحوائط حتى يمر وتنفس الصعداء .

كل السراى جميلة ، جميلة جدا ، كل ما كان ينقصها من وجهة
نظر عائشة - هو تربية الطيور والبهائم ، فالطيور لا تربى لكنها تشتترى
جاهزة لتقدم فاضحة .

عرفت أن الطاهي يأخذ من (الهانم الكبيرة) شهريا ما يقرب من
ستين جنيتها يتصرف فيها كما يشاء يتفنن في طريقة تقديم الوجبات
والغداء يختلف عن العشاء يوميا ووقتها كان الجنيه جنيتها .

أما السفرجى - هو الآخر- فكان يقبض شهريا ما يقرب من الثلاثين
جنيتها يشتري منها أنواع الجبن المختلفة والورود التى تزين المائدة يوميا
ثم الفاكهة .

هذه المبالغ، المفروض انها لأصحاب السراى، لا علاقة لها - بتاتا -
بالأجر المخصوص الذى يتقاضاه الطاهي والسفرجى .

عقيلة هانم امرأة بيضاء ملامحها تستطيع أن تقول : انها عادية ،
لكن ما يميزها - بقدرته قادر - هو هيئتها : الشموخ المشوب بالخيلاء
والأنفة .

ومع ذلك فامومتها واضحة تحس بها أكثر وتلمسها عائشة تماما
لما كانت تحس بأمومة الحاجة حسنية لابنتها سيده .

فى مشهد من تلك المشاهد يوم الخياطة .

اختارت الأم (مودىلا) لابنتها نبيلة وقامت الخياطة بصنع الثوب
بدقة ، وبينما كانت ترتدى نبيلة الثوب لتتقين أنه يناسبها تماما تقوم
الأم من على كرسيها حتى تكاد تحرق بسيجارتها المشتعلة بعض الأقمشة
المتخلفة بحماس لتقول بعض انتقاداتها وتعديلاتها للخياطة ولبنبيلة معا ،
ثم تتأمل ملامح كريمتها الوحيدة المدللة وتقول بفخر يقطر حنانا : أريدك
أن تكونى أجملهن ، أجمل الكل ، أجمل من بنت خالتك وابنة عمك !
وشعرك هذا يا نبيلة يجب أن تقلى (من دهانه) فبريقه الطبيعى يغنيك
عن هذا ، وحمامات الزيت أكثرى منها قبل الاستحمام .

هذه البثور يا نبيلة التى كادت تملأ وجهك : لماذا لاتواطبين يا حبيبتي
على استعمال الدواء الذى كتب لك الطبيب ؟

تلك اللفتات واللمسات الخفيفة التى تبدو عابرة كانت تنحفر فى
ذهن عائشة وتستعيدها فى خلوتها أكثر من مرة .

فى يوم سمعت عائشة (عادل) يصرخ مناديا :

— أين السفرجى ابن الـ . . لماذا لم يجهز لى مياه الحلاقة ؟ لماذا
لم يرد أحدكم ؟

يريد القدر وتختار السماء أن تكون عائشة المحظوظة هى المخلوق
الوحيد الباقى فى الطابق الذى به عادل والوحيدة التى استمعت لى
صراخه .

كانت تكرهه — لله فى الله — وصارعها عاملان : عامل الاستجابة
تلبية رغباته ، وعامل الخوف ، الخوف من كلمة خارجة أو تصرف شائى
من ناحيته وهو المشهور بعصبيته التى يمزجها باستعمال أى شيء يصادفه
ليقتف به المخلوق الذى تشاء محاسن الصدف أن يمر أمامه !

وبينما هى فى حيرتها لمحها يثوبها القصير وضفירתها المحلولة وعينيها
الواسعتين الوجلتين .

قال بهدوء يحمل الوعيد : هل سمعتنى ؟ لماذا لم تردى ؟ ولماذا
تلتصقين بالخائط ؟ هيه ؟ تعالى هنا أيتها الدخيلة .

قال ذلك وسحبها من يدها الجافة الباردة •

وتخشب جسمها وازداد بريق عينيها وأسعفتها العناية الالهية
فكانت : لم ••• لم أتمرن على هذا العمل من قبل •

– نعم ؟ لم تتمرني على احضار بعض المياه الساخنة ؟ تعلمين أنها
(جاهزة السخونة) فحمامات الفحم التي عند صديقك الطاهي تقوم
بذلك ، ما عليك الا – (وحرك يده بطريقة متجدية وجز على أسنانه
وأكمل) – أن تصبى المياه في هذا الاناء هل هو شيء صعب ؟

قالت عائشة وهى لم تدرك هل هو الرعب أو منطقية الموقف التى
جعلتها تتفوه بهذه الكلمات :

– ما دام ذلك ليس شيئاً صعباً فلماذا لا تقوم به أنت ؟

الذى حدث هو أنين صادر من عائشة، وزبد يخرج من شدى عادل
يصاحبه ارتفاع يديه وهما تروحان وتجيئان على صدغى الفتاة النحيفة
الرقيفة وصوتها الضعيف المتخاذل : آى ، آى !

تجىء عقيلة هانم مهرولة ، ثم تربت على كتفى عادل وتقول :

– انها صغيرة ولا تفهم شيئاً •

فيصرخ بصوت منكر :

– أريد سبباً (ولو غير معقول) يقنعنى بوجود هذه البلهات عندنا،
ما الذى يجبرنا على تحملها ؟ ميوعة أختى أو لعل بيتنا ملجأ ؟ انها لاتصنع
شيئاً بالمرّة •

وتسمع عائشة وترجع بها الذاكرة الى الوراء قليلا لقد تفوه الحاج
أبو سيده بهذه الكلمة من قبل – تكاد تقسم – بأنها لم تسيء لأحد ؟

لماذا يضطهدونها ؟ ولماذا تقل القلوب الرحيمة عن القلوب القاسية ؟
والأم تهدىء من ثائرة ابنها •

وعائشة ! من يخفف عنها ويقبلها ويربت على شعرها ؟

نعم ، انها القطعة الصديقة الوحيدة التى – نادرا – ما تظلمها •

بعد هذا الحادث مباشرة تجرى عائشة الى – حاميتها – نبيلة
وتستجديها عند قدميها وتقول بصوتها المظلوم الذى يكاد يفتت الحجر :

— خبئني يا سيدتي لا أريد أن أغضب سيدي (عادل) لم أقصد ،
والله لم أقصد ، بودي أن أرضيه وأن أخدمه لكنه ينظر لى بحدة دائما
لماذا ؟ لم يبد مرئى ما يسىء اليه أو لى مخلوق هنا انتى ٠٠٠ انتى ٠٠٠

ثم انفطرت ، خرج كل ما فيها من كمد وآلم وحزن ووحدة وأنت ،
وكان كبدها وقلبها يتمزقان ويترقان !

وانكمشت نبيلة ، وانقلبت سحنتها وأخذ الفيظ بتلابيبها ، ثم ٠٠
ثم لمحت دما يسيل من فم عائشة ، فقوجت ، وروعت ، لكنها سرعان ما
تمالكت نفسها وقالت بنغمات حلوة رقيقة كالتي تسمعها عائشة من أنامل
سيدتها وهى تعزف على البيانو : مادمت بجانبك يا عائشة فلا تخافى ،
تعالى ، تعالى يا حبيبتي ، لا . ليس بعيدا ، بل بين أحضاني !

وتتد يد نبيلة العاجية المعطرة وتدلك — برقة — ظهر عائشة البارز
العظام .

سرعان ما تمر الايام والشهر وبعض السنوات القافزة .

كيف تفكر عائشة فى مصيرها ومستقبلها وأملها وطموحها ؟ وما
النماذج التى — من خلال انطباعاتها عنها — تستطيع أن تتخيل دنيائها
وحياتها المقبلة ؟

تعدت مرحلة الطفولة وبدأت فى الصعود الى درجات المراهقة .

كلنا أو معظمنا اقتاد بغيره من جنسه ، كانت عائشة تعجب جدا
بالحيطة البسيطة حكمت ، كانت خمرية ، عودها ، آه من عودها ! (متلبس
باللحم الشهى الناعم) وآه من شعرها البنى وعينيها الواسعتين ٠٠ ثم
صوتها الذى يتأود ويتثنى !

لا ، لا ، لم تكن عائشة (مائمة) لكنها — بينها وبين نفسها — كانت
تحبى بعد انحنائها أنوفة حكمت !

استقت منها بعض المعلومات التى — تخص وتفيد — الفتاة بعد أن
أتمت البلوغ ، وكيف بل ويجب أن ترعى نظافة جسمها وقص أطرافها
وشعرها .. ولو أنهما اختلفا ، فعائشة تريد أن تكون لها صغيرة طويلة
غزيرة حتى تصل كمبها ، وحكمت تقترح الطول المتوسط وتستريحى نظر
عائشة الى (ذلك الوشم الأخضر اللعين) الذى يتوسط جبهتها، ولا تجد — فى
رأيها — علاجا لاختافه الا (قصة من شعرها) تبدو للزينة وحقيقتها تغطية

تلك الوصمة ، وعلى أية حال لم تتيقن نضجها الا حينما زارتها الحاجة حسنية التي لم تنقطع عن رؤيتها خلال تلك السنوات ، قالت لها مبهورة: لقد ازداد طولك وامتلا جسمك ما هذه الخلاوة ؟ اما هاتان العينان فيا لسحرهما لقد ورثتهما عن ابيك (ثم مصمصت بشفاها) ، الله يرحمه ويبيشيش الطوبى الى تحت راسه !

عادل ، حصل على شهادة البكالوريا ، كان ذكيا حسيفا وهو يميل لممارسة الألعاب الرياضية ويتميز بعضلاته المقتولة وشاربه الكث ونظراته الحادة التي تكاد تخرق الحواظ .

يمضى بعض نهاره فى الجولان فى طوابق السراى يفتش وينقب لابقصد التنظيم وانما ليتصيد الهفوات والعيوب التى تصدر من الجميع .

سمعتة عائشة مرة يقول بزهو لامه : تأملت وجوه وسحن جميع من نعرفهم ومن لا نعرفهم من الشباب - الذين فى عمرى - فلم أجد منهم من هو مثلى ولن أقول من يبرزنى !

واستشاط الغيظ بأخته فقالت له ولأماها محتجة : ما هذا الغرور ؟ أرجو أن تقنعنى : ما الذى يميزك على الآخرين : طولة اللسان أم وحشيتك؟ أحب أن أسرد لك مساويك ؟ صدقنى سأتعيب كثيرا لأنها لاتعد ولا تحصى وآخرها معاملتك للمسكينة عائشة !

فوضع يديه فى خاصرتيه وقال متبجحا مستندا الى ضعف وحنان أمه :

هل وانتك الشجاعة أخيرا ؟ بالله عليك ما دور عائشة ؟ النديمة أم المرفهة ؟ أخادمة هى أم - والعياذ بالله - سيدة بيت ؟ هيه ؟

وتبتسم الأم وتخفى ابتسامتها بأن تمسح بيدها شفتها الجافة .

وترد نبيلة :

- انها تساعدني وترفه عني وترافقني كاختي تماما لو كانت لي أخت ما فاقتها فى حنانها .

تهقه عادل بوقاحة وشراسة :

- سيدى يا سيدى ، يا عينى !

عرفت عائشة أنه لا يجبها بل يكرهها كرها شديدا .

وفي يوم وبمحض المصادفة لمحت السفرجي بشحمه ولحمه يحصر
حكمت بين ذراعيه اللتين تستندان على الحائط حتى لا تستطيع الهرب ،
ثم وهو يقتصب منها قبلة والآخرى تحتج .

وكالبريق أسرعت عائشة بالجري ، وقالت لنفسها بالرغم من أنها
تلهت : دائما أرى المساوى والمباذل !

آه منك يا حكمت ، لكن سيدتي نبيلة تقول : انه اذا اجتمع شباب
وفتاة بدون زواج يكون هناك خطر ، اللهم اكفنا السوء !

وفي المساء زارت عائشة حكمت في حجرتها وشاهدت زجاجات
عطر فاخرة على التريشة ، فسألها برقة ، من أين لك بها ؟

وضحك حكمت ضحكة ناعمة مثيرة : من مالى ، من أجرى ، من
أتعابى .

لكن عائشة - التى لم تنس منظرهما ، تقول : بل لعلها من حبيب .
وتتسع عينا حكمت اللامعتان وتبدو فيهما السعادة :

- هل أنا جديرة بالحبايب ؟

ويستبد الصجب بعائشة فتقول متسائلة : وهل يسعدك هذا ؟

- أيتها البلهاء ، أن توهب لى هدايا يعنى ذلك أننى أروق فى أعين
الكثيرين !

هيه ! أمامك عشر سنوات كى تفهمى .

وتأوهت عائشة قائلة : بل قولى مائة !

عندما أسرت الحاجة حسنية فى أذن عائشة ناصحة أن تعلمى بعض
المهن : فانك تخالطين الطاهى والحائكة فلماذا لا تأخذين منهما الاسرار ؟ انها
فرصتك ، ان لم تنتهزها اليوم فستضيع منك الى الابد .

وبالفعل فى أشهر قليلة استطاعت ان تخطط ملابسها لنفسها .

استأذنت سيدتها فى اخذ بعض (الموديلات من كتالوجات) الخياطة
الانيقة ، ودميتها - التى اشترتها ببعض ما تأخذ من مال كانت النموذج
الذى تجرى عليه تجارب الخياطة .

بلغت نبيلة العام التاسع عشر من عمرها ، وقد عرفت ذلك عائشة حينما سمعت بوجه الصدفة وما أكثرها الام وهى تسر بذلك فى أذنها ثم تعقب :

— ما رأيك فى ابن خالتك يانبيلة ؟

وابن الخالة (أحمد) شاب (على نيابة) يملك أرضا واسعة وتحصيله الثقافى من منازلهم تماما كنبيلة .

أبيض اللون متوسط الطول له شارب أنيق (مشنّب) وشعر لامع أسود مصقول .

استنبتت عائشة — بينها وبين نفسها — أنه لابد قد حدث شىء من الميل لنبيلة بالنسبة لابن خالتها فهى تكثر من زينتها ، وتستوشد بأرائها ثم — وهو الأهم — يزداد مرحها وجورها ليلة أن يزورهم .

فى ليلة عيد ميلاد عادل امتلأ الطابق الأول بالمدعوين والمدعوات (طبة الذوات) التحدث باللغات غالبها الفرنسية ، والسجائر تشرب (فى مياسم) والعطر يكاد يخنق ، والضحكات العالية بعضها خشن يتسم بالمرح والآخر ناعم مثير ، لا يحدث الاختلاط الا بين الأقارب المتزوجات منهن والمتزوجين .

عائشة تختلس النظرات : تشاهد وتأمل وتتعجب استرعى نظرها رجل فى العام الخامس والأربعين ، البياض يظلم شعره وابتسامة وضاعة تقمر وجهه ثم حديثه الرقيق الدسم استأذن الجميع وخرج الى الحديقة .

ثم ارتكز بكتفه يديه الى سور الشرفة وتأمل القمر المنير وأخرج من جيبه علبة سجائره ودون أشياء لا تعرفها لكنها أحسن بها .

لا تدرى الشيطان هو ! أم سحر الليل الذى دفعها كي تمشى هى الأخرى فى ركابه وتختلس للخطي ثم تختار حوضا (من الحديقة) مزروعا بزهر البسلة لتقف فى وسطه .

يتأمل الضيف الحديقة ويفاجأ بها وسسلف البسلة قديمم ! ما الذى أبى بزهرة الباتسيه بين البسلة ؟ ثم يشير إليها بأصبعه أن تعالى .

كالمسحورة تأنى اليه وترقى الدرجات الرخامية وتبتسم ابتسامة ملائكية ويهتف شىء فى نفسها : لعله أبى ، أنه يشبه كثيرا ، لو عاش لايبض فوداه تماما كهذا الرجل .

ويهمس بصوت كالعطر : من أنت يا شاطرة ؟ ويرجع عليها القول .
هي نفسها لا تدري من هي تماما في هذه السراى : أنا ، أنا ؟

ويردد : أعرف ، أنت الربيع !

وتقول في نفسها : يذكرنى (برواية كانت تقرأها سيدتى بصوت عال قبل نومها) . ويأتى صوتها ، أنا عائشة خادمة نبيلة هاتم الخاصة .

كان يرتدى « جاكيت » بيضاء كاللثة وينبعث منه نور عجيب .

لا تدري ماذا شجها كى تسأله : من سيدى ؟

يرد الصوت الحالم العميق : أنا حسين ، حسين يسرى ، قريب عقيلة هاتم من بعيد !

وتتشجع وتسأله : لم أرك من قبل .

ويضحك ثم يقول : لكننى رأيتك كثيرا .

وتفاجأ فتسأله بطهارة الأطفال : أين ؟ ومتى ؟

فيسمك بيدها . . فى الأحلام !

سألت نفسها فيما بعد : كيف وانتهت الجراة لتلقى عليه السؤال :
ما الذى كنت تكتبه ؟

— أياها من الشعر : القمر عندما يكتمل يشدنى اليه ، بيننا
ميعاد دائم بدأ منذ أن كنت فى العام الخامس عشر من عمرى ، لكننى
اليوم أضفت (الى الشعر) الشيء الكثير .

صحت عائشة من حلمها الرائع على صوت عادل الأجنس (المؤذى)
وبقفزة واحدة اختفت من الشرفة .

واسرعت بالاختباء فى حجرتها الصغيرة التى تلامسق حجرة
سيدتها .

يبدو أنها نامت ، بل لقد نامت فعلا ، فقد أحست بيد نبيلة هاتم
الحانية تربت عليها ، وتسألها برفق : لقد نمت مبكرة فى ليلة ميد
الميلاد ، كم أنا محتاجة اليك لاسر لك بالكثير .

وببساطة جلست بجانبها فى الفراش وكانت الساعمة قد جاوزت
الثانية بعد منتصف الليل .

وخرجت همساتها كالتفريد وقالت : الحب جميل يا عائشة .
ستعلن خطبتي على أحمد في العيد المقبل لقد اتفق مع أمي ، منذ أن كنا
طفلين ونحن متعاهدان عندما كان يجيء لزيارتنا كان يشدني بعيدا عن
الرقباء ليهمس لي : حينما أكبر هل تزوجيني ، فكننت أفعقه ثم
أضربه في جبينه .

وضحكت (ربما لاستعادتها للموقف) والليلة اعتذرت له عن
ضربي . تصوري اعتذارى بعد عشر سنوات .

للحديث نشوة وللحب سحر جميل أطلق لمشاعر عائشة العنان
فسألت سيدتها وهي كالسحورة : هل سيدي حسين بك يسرى متزوج؟
وتوسع عينا نبيلة ثم تطلق ضحكة حلوة وتقول : الله أكبر ، لماذا
تسألين ؟

تقول عائشة وهي تفضي نصف اغضاء : لا ، لا شيء .
انه بسيط ، متواضع ، ليس كبقية الاقارب .

وترد نبيلة بجدية : في الواقع ، هذه صفاته فعلا ، ولعلها من
الاسباب التي جعلت ماما لا تقربه اليها كثيرا ، انه شاذ وهذا رأيها ،
والله أعلم - شاعر رقيق ببساطة الخدم والطبقة العاملة ، وانت تعرفين
من الصعب جدا استسافة هذا في بيتنا ووطننا ، ونعزو ذلك الى
ضعف ونقص في النفس .

ترد عائشة : غريب والله ، أواه قويا ، وعظيما .

ترد نبيلة بسداجة : ربما لانك ...

وتتعلق كبرياء بنت القرية فتقول بشموخ : نعم لانني فقيرة ،
لكنني لست بخادمة .

وتفتصب نبيلة ابتسامة وكأنما تربت عليها فتقول :

- لك الله يا عائشة ! اهكذا تفضيك الكلمة البسيطة ، دعيك من
هذه الحساسية التي مستحيك .

هل العيد ومع بركاته تمت خطبة نبيلة لابن خالتها أحمد وأعدت
الهدايا الثمينة الرائعة .

تحسستها عائشة كثيرا في حضرة نبيلة وفي غيبتها وقالت بينما وبين نفسها : سيدتي نبيلة تستحق كل خير ، هل سيقدر لي مثلا ان اتزوج ؟ من ؟ .

سمعت الست الكبيرة تقول مرة وهي تزيل الغبار عن مرآة الرواق الكبير وبين تحريكات يدها واتخاذها هيئة الاستدارة للتلميع ، كانت الكلمات تصلها متقطعة لكن مفزاها هو : السائق يصلح لها ويرد الخبيث (عادل) دمه يشبه دمها الثقيل السمج ، والله سأقيم (ندرا) لو غادرت السراي .

فتسأله امه وفي صوتها رنة التعجب : لماذا تكرهها كل هذا الكره ؟ وباتيتها صوته الصافع : انا نفسي لا ادرى ، بودى ان امزقها واحيل عظامها الى بودرة .

وتمصص الام بشفاها : كائك لم ترد على سؤالي .
اذن فهي لا تستحق الا السائق الزنجي ذا البشرة (المخروشة) ورائحة عرقه التي تصعق من يتشممها ، الله يسامحكما .

لا ، لا لن تتزوج الا من تجد الراحة لديه وفي كنفه ، هل قدر لها ان تنتقل من بلوى الى اخرى ؟ والله عااa

ثالث ايام العيد زارتها الحاجة حسنية ، وبشرتها بان سيدة ستخطب لابن شيخ الخفراء : جدع طول وعرض ، والرقبة كدة ، والعين كدة ، والشنب يقف عليه الصقر !

وتأمل حسنية عائشة بشعرها الفاحم الرائع وعينيها الواسعتين وفمها الذي يشبه ثمار الكرز وخصرها النحيل الدقيق وأردافها التي بدأت تتخذ هيئة استدارية بعد ان كساها اللحم ، شاهدتها في جولة سوداء مرقطة بمرمعات بيضاء وبلوزة بلون القشدة انسابت عليها الضفيرة كالانفوان .

وشهقت الحاجة حسنية وتنهدت : عيني باردة عليك يا سنيورة، وانت يا حلوة متى سنفرج بك ؟

تقول عائشة بحياء : من الذي يرضى ان يربط حياته بخادمة ؟
وتستنكر الحاجة حسنية قولها وكأنما تحمل نفسها كل ذنوب العالم : فشر جمالك وكمالك يؤهلا لك لاحسن واحد .

— آه ! كلام !

وتتمد يدها الصنوبرية وتخفي صرة صغيرة في حجم الكف ثم تطبق عليها ييد الحاجة حسنية قائلة بهمس :

الف مبروك لسيدة الحبيبة ، وكم افتقدتها ! كانت أيامنا حلوة ، والله يا حاجة حسنية لا أستطيع أن أنسى حناك ودفاعك عني ، على فكرة أين الخاله محاسن وأختي عنايات ؟

تنهد الحاجة حسنية وقد اغرورت عينها بالدموع :

— والله كريمة وأصيلة مثل أمك وإييك ، خالتك محاسن أخذت كل ما بالدار . وطفشت مع ابنتها ، سبحان الذي يعلم أين ذهبت ، وأين حظ بها الرجال !

أصبحت عائشة بحق صبية حلوة لونها يميل الى السقم وبياضها يشبه العاج يريد من حلقة عينيها وشعرها .

في حجرها الخاصة التي تلاصق حجرة سيدتها دولاب (بضلفة مرآة) وسرير نحاسي ذهبي عليه غطاء كالفل مطرز بورود ملونة ، من صنع عائشة نفسها وتسريحة صغيرة دمها خفيف وهبتها لها نبيلة هاتم بعد أن اشترت لنفسها أخرى أكثر أناقة ، وهناك في الركن سحارة من خشب متين تحتفظ فيها ببعض الكتب والصحف اليومية ومفارش منها ما اكتمل ومنها الذي بقي على تطريزه القليل ، كانت تختار العصر لتتسلى بالتطريز .

حكمت في الأيام الاخيرة ازداد وزنها وانتفخت عيناها وذبلتا وقلت زيارتها لعائشة في حجرها الخاصة .

في الفترة النهائية للخطبة كانت نبيلة تجد في عائشة — متنفسا — لآلامها وآمالها ومشاعرها الدافئة فكانت تفضي اليها بمكنونات نفسها .

وعائشة مع همسات نبيلة وبعض ما تقرأه تسبح في عالم جديد لم تعرفه من قبل .

لكن عندما اقترب موعد الزفاف أخذت نبيلة تحدثها بجدية وتقول : أريد أن أطمئن عليك قبل خروجي من السراي ، ماما تعرفينها

طيبة جدا ، لكن هذه العظمة التى تبدو عليها نتيجة (ثم تضحك)
لنصرها وجنسها : فالأترك أمرهم معروف ، أما عادل ، وهنا تهرق
عينا عائشة وتنكمش ، فحاولي أن تخدميه مثلما تفعلين معي ، الغيرة
دائما بين الأخوة ربما كان يفار لآئك تساعدننى وتهملينه ، (ثم
أمسكت أذنها لتداعبها) اتفهمنى .

وتحس عائشة بفصمة وتقول والحياء والخوف يغلبانها على أمرها :
ليس هناك - ولو أم لضعيف - فى أن تصحبنى معك ؟ أنا على اتم
استعداد - ودون أن تدرى أمسكت بساعدها - لاكنسى وأمسح الأرض
وأربى لك أول ابنائك فانا أحب الأطفال حتى كلبك الذى تمرينه سأؤولى
أمره واقوم بمصاحبته للتنزه عصر كل يوم و ...

وتقاطعها نبيلة - بعد أن أحست بأنها فى طريقها لقتل أمانيها - يا
ريت يا عائشة العزيزة ! هل نسيت أننى سأعيش مع خالتى والسراى
التي تملكها فيها كل الخدم الذين يحتاج اليهم وأخشى أن أقول ...

وتضح الحديقة أمام عيني عائشة فتكمل ما انقطع من حديث :
نعم ، لا مكان لى لديكم ، هذه حياتى . فى كل أرض احط عليها أكون
عبدة ، لست أنا التي أنهيت حياة أمى ولست أنا التي زوجت أبى .
ولست أنا التي تسببت فى دخول أبى السجن ولست ..

ويعتلئ قلب نبيلة بحزن مؤقت فتقول وهى تشد أنهاء
الحديث : فكرى فى الغد وفى أنه أفضل من الأمس واليوم .

ثم تفرص خدها وتقول : ما رايك فى اننى سأبحث لك عن ابن
الخلال بنفسى ؟ اتشكين فى ذوقى .

وتصحو عائشة من أحلامها وترد : متى سيتم الزفاف
يا سيدتى ؟

وتنسى نبيلة أن الحديث ذو شجون فتزد بسعادة : الأسبوع
القادم .

للمرة الثانية .. التقت عائشة بصين بك يسرى

ليلة زفاف زفاف نبيلة هاتم : المدموات فى أبهى زينة والموسيقى تصدح
أمام بوابة السراى ، والورود والباقات المنسقة المتباينة الألوان
والاشكال تكاد تغطي الاروقة .

واستطاعت عائشة - بما لدخونه من مالها - ان تهدي الى سيدتها روبا على الطراز الياباني حاكته بنفسها وطرزته ، خيوطه كانت خليطا من اللون الأبيض والأحمر والأزرق والذهبي .

كما استطاعت كذلك ان تخطط لنفسها - بمناسبة ليلة العرس - ثوبا في لون الفل يصل الى الارض ، واستأذنت الست الكبيرة في ان تصفف شعرها مند الحلق الخاص الذي يجيئهم خصيصا في السراى .

قالت لها عقيلة هاتم بطريقة لم تعجبها : يستحسن يا عائشة وانت هكذا اتيقة الا تختلطى بالدموات والدموين ، فربما يختلط عليهم الامر ، يمكنك ان تلوذى بأحد الاركان ، اننا (وحاولت الاستظراف بان قرصتها من خدها) لن يستغنى عن خدماتك ، فالدموات والدموين طلباتهم لا تنتهى والسفرجى تعرفينه (لخرة جدا) .

وحاولت عائشة ان تستخلص من حديث ولية النعمة : اتمتدحها هى أم ننتقص من قدرها ؟ فلم تصل الى رد شاف ! دائما حسين بك يسرى بجدها وحيدة .

لعلها الظروف ، على أية حال لم تتصرف الا على حسب الأوامر ، انه هو الآخر في الشرفة ، لكن القمر لم يكن قد اكتمل بعد .

ترى ما سبب تفضيله الانفراد بنفسه ؟

ستحاول ان تخفى نفسها حتى لا يظن بها الظنون .

لكنه يراها كيف لا ونورها عوضه من نور القمر .

ياخذها من يدها ويسالها : اتملمين اننى لم اتسك ؟

وتنكس رأسها وتقول : اننى يا سيدى خادمة نبيلة هاتم ، وبما تظننى أخرى .

وبصوته الهادى المتزن الحنون يقول : انت عائشة ، من قرية (..) ولك فى هذه السراى ما يقرب من ثمانى سنوات ، لمحتك (وهذا جائز) وانت طفلة (وأشار بيده) كنت فى هذا الطول لا تكادين تصلين لركبتى !

وتاملته عائشة ، كان مورد الوجه ، وخيل اليها ان فوديه قد

ازداد بياضهما ، وشاهدت هويناه ذات السلك الذهبى وعينيه
(المضغمتين) الساحرتين .

لم يكن وسيما ، ولكن كان فيه شيء ، شيء عجيب .

وقد سأله . احكى لى عن طفولتك ، عن حياتك ، عن كل آمالك ،
افراحك ، ما تعانيه هنا .

فرحت هى ، ثم خافت ، لكنها استأنست عندما لمحت الابتسامة
تurf على شفتيه .

وأخرجت له كل ما بنفسها ، اختلاطها باهل القرية وهنا فى
السراى . وملازماتها لسيدتها ، وتحملها لصراخ واهانات عادل وتاملها
بهدوء ، ثم رفع يده ومسح على شعرها وعدل عن هيئته (قصة
شعرها) فقفزت الى الخلف وجلة .

لكن ابتسامته الدافئة جعلتها تستكين وتقبل فسأله : ما بك ؟
انك كابنتى ، افلا ترتاحين لصحبتي ؟

لكنها أفصحت له قائلة وهى تشير الى جبهتها : هنا ، انا مدموغة
بوشم يحدد مقامى ، فانا فلاحه جلغة ، زبالة كما يدعونى عادل بك !

ويقهقه حسين بك يسرى ويقول : ما معنى هذا ؟ وما قولك فى
رجال البحرية الذين يمشقون الوشم ؟ اليسوا آدميين محترمين ؟

فتقول ببساطة : لكننى لم التحق بالبحرية يا سيدى !

وبعد أن يكتم ابتسامته يقرب وجهه منها ويقول : اتعلمين ؟ انت
هنا بعيدة عنهم ، من الجميع وفى الشرفة معى ، لاننا نفضلهم ، نحن نعيش
فى دنيانا ، لا نؤذى احدا ولا نفتابه ، كما أن قلوبنا صافية ، لكننا لسنا
ضعفاء .. اتسمعين ؟

كان صوته هادئا لكنه قوى عميق اخاذ ، ولكلماته فعل السحر
يا لعدوية هذا الرجل « وفيما قاله لها : لا تستكينى يا بنيتى لاحد ،
انت تقدمين الخدمات مقابل قروشهم ، بل ولملك تشاهددين الفضائح
والأخاذ ، (ثم وضع انامله على شفتيها الطويتين) وقال : يجب الا
تهمس لاحد بما تعرفين فالشخص النظيف الأصيل يصون ، ولا
يشهر .

كونى دقيقة فى كبرياء وعرة ، واعلمى جاهدة ، امامك طريق

مفتوح ، اما ان يحملك رجل جدير بك ، واما ان تمتعنى خدمة شريفة
تضمن لك مستقبلا واسعا مفتوحا بالخير ، هيه ! انسمعيني ؟

ولا تظنى ان مولدك فى القرية سيكون مما تؤاخذين عليه فيما
بعد ، اجداد جدودنا كانوا من الريف ، وبعضهم ان لم اقل معظمهم نرح
الى المدينة فما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟ اتعلمين ؟ انه قطار السكة
الحديدية !

كيف تنسى عائشة ليلة زفاف نبيلة هانم ؟ .. الليلة نفسها ..
منزلة نبيلة هانم .. مجالسة نبيلة هانم !

ثم تنتهى الليلة ، تشاهد نبيلة مع عريسها فى سيارة سوداء
تتهادى بدلال وفخامة ، يخرج من نافذتها قفاز ابيض كالحماسة وكف
كبيرة مفتوحة يودمان .. يضافحان فى طريقهما الى حياة جديدة
تفرووق حينما عائشة بالدموع .

تعرف انها انسلخت تماما عن قلب رحيم عطوف حماها وصاتها
ودافع عنها واقدق عليها .

قلب عوضها حنان الام والاخت ، وعقل ويدان قاداها الى عالم
زاخر مليء بكل شيء .

اوصلها لنور العلم وحلاوة الاعمال اليدوية واسرارها والان وبعد
ان امتلات نفسها بتوجيهات حسين بك وبعض اللامحات اللوضاءة التى
اشارت اليها نبيلة هانم يجب ان تنفرد بنفسها لتحدد معالم طريقها
الجديد ، الرقة فى كبرياء وقوة ، لغة غريبة وجميلة استطاعت - بعد
مجهود - ان تفهم - الجملة .

تتقرب الى عقيلة هانم - الحصن الاول - اما القائد المتفطرس
الشرس فسيحتاج منها - الى مجهودات مضافة .

عدلت من وضع (مريلتها الشعبية المنشأة) وكذا من شرائطها
والقصة التى تخفى الدمغة اللعينة (الوشم) لكنها سرعان ما تذكرت
اقوال حسين بك فرفعتها بيدها مسرعة كأنها تتحدى ، وتقعن ومشت
بخطى حثيثة حتى وصلت الى باب الست الكبيرة وقرعت الباب .

المألوف دائما انه اذا كانت عقيلة هانم في احتياج لاحدى الخدمات
او أحد الخدم تقرر الجرس المرقوم بالنمرة التى تخصه .

وقد تذكرت عائشة كل ذلك بعد أن سبق السيف العليل .

خرج رأس عقيلة هانم المخضب - من فتحة ضلعتى الباب
والرشوق فيه بعض الدبابيس والمشابيك فلمحت عائشة عينها
الدابلتين ثم - وهو الأهم - تلك النظرة التحدية الغاضبة الشامخة
التي تطل من عينيها وخرج صوتها الأبي : ماذا تريدان يا عائشة ؟

بالصوت الخجل المتردد الهباب أجابت : أريد ، أريد أن اتحدث
معك .

- ادخلى .

ولمحت عائشة الدلالة التى تبيع الأقمشة والأقواب تجلس أرضا
تكشف وتطلب فى ذكر محاسن بضاعتها .

وبإشارة من رأس عقيلة هانم تكاد تسال عائشة : أسر خاص
هو يستدعى خروج الدلالة ؟

وترد عائشة بانها نفسها لا تدري ؟

وتتهدد عقيلة هانم حيرى قلقة وتسال بمصيبة : هاتى ما عندك
يا عائشة وخلصينا .

بابتسامة عائشة البريئة ، تكشف عن أسنانها المنضودة وتقول :
ليس عندى ما أقوله سوى تمنياتى القلبية بحياة موفقة للست نبيلة ،
و . . وأنا فى خدمة سيدتى لأتلقى الأوامر الجديدة .

وتولد ابتسامة على شفتى عقيلة هانم الرقيقتين لم تعد يدها
وتربت على كتف عائشة وتقول : بنت طيبة يا حاجة (وتومئ الى
الدلالة) أليس كذلك فيها الخير والله ؟

وتهز الدلالة رأسها هزات متوالية ثم تفحصها مليا وكأنها قد
دار برأسها مادة لقصة قصيرة فسالت فجأة :

- على فكرة ، يا سيدتى أين حكمت ؟

وينكمش وجه المرأة ثم سرعان ما تتمالك نفسها وتقول بمعظمة
« غارت فى ستين داهية » .

تفاجأ عائشة وتلفت حولها ثم تتأمل للتعبيرات المترسمة على وجه الرايين : تجد في الأولى (الدلالة) تساؤلا متخابئا وفي الأخرى الدفاع الشامخ الذي يخفى وراءه الكثير ، لكن السداجة المطبوعة على محيا عائشة تتطلب فتسال : حقيقة لقد اختفت دون أن تودعني أو حتى تسلم علي ، هذه التي كانت تدمي صدقتي ، وتلمع بينا الحاجة فتجسم ثم تسكت .

وبرقة غير متوقعة تقول عقيلة هانم لعائشة مشجعة كأنما تريد انهماء الحديث : من باكرو يا عائشة ستلازميني أنفهمين ، وسيدك « عادل » ...

فالت عائشة بعض الكلمات لأنها تحولت بكليتها الى مشاهدة الحاجة (الدلالة) فقد اتسعت عينها ولحمت فيها شيئا يريد أن ينطلق .

وسالت عائشة سيدتها ببراءة : نعم ماذا بشأن سيدي عادل ؟ تسألها السيدة : ألم تسمعي ؟ قلت لك : لا تضايقيه ، اقصد لا تصرفي الا كما يريد هو .

الصباح الجديد لدخل عائشة حجرة السيدة الكبيرة فتفتح النوافذ وتزيل الأتربة من الأرضية ثم من على قطع الأثاث وتنظم الأدوات الدقيقة التي على (التريشة) ، وبينما هي منهمكة في عملها ترى سحنة عادل بك في مرآة التريشة المصقولة فترتجف ، ثم تلتفت الى الخلف مدمورة .

لم تسمع الباب عندما انفتح ، لكنها سمعت صوته الهاديء القائل : تعالى هنا .

وتلفت يمينا ويسارا - كالفار الحبيس بالمصيدة - ويرتفع الصوت هادرا أ قلت لك : تعالى هنا الا تسمعين ؟ وتعتشر عندما تخطو هذه الخطوات الواسعة ، ويتسم ، ياه ! كانه العفريت ، . لا ، ان غضبه أجمل وأرق ، يقول ساخرا : ألم أقل لك انك زبالة ؟ كنت ستقمن لماذا ؟ ألم تتعلمي السير بعد ؟ والعجيب انك تلبسين الكعب العالي !

فتسأله بهدوء : ماذا يريد سيدي ؟

وعندما تنجمد جبهته وتقترب عيناه كل من الأخرى في هيئة صارمة يقول : أنا الذى يتحدث ويقول ما أريد ، اتفهمين ؟ لا تسالينى !

فتربيع يديها على صدرها وترفع حاجبيها وتأمله بنعم فيها النظر هو الآخر ، . ثم يقهقه ، وبمدها يتر الضحكة ويقول وهو يوليها ظهره :

— بعد أن تنتهى من تنظيف حجرة ماما . وأرجو أن يكون ذلك بعد دقائق تعالى مندى في حجرى الخاصة !

الدقائق ، صارت ثوانى ، كل ما فيها يحتملها يقول لها : اصلى الخير ، أطيعى ، لا تركى ثغرة توصلك لآى متاعب ! من يدوى ؟ فربما هؤلاء بما فيهم من نقائص أفضل من غيرهم .

تسرع لتصل الى حجرة القائد عادل ، تنتفض اناملها وتسرى رجفة في جسمها كله ، في نيتها أن تفرع الباب — على حسب المألوف — الا انها تجد كل شيء مفتوح الدراعين : الحجرة مهوشة ، كأنما ذلك من عمد ، رائحة الدخان تعبق جو الحجرة وهو هناك قابع في الركن على كرسي ضخم يكاد يخفيه ، تحاول أن تتكلم كأنما ترفع أصبعها كالتمليدة المستأذنة ، تريد أن تقول : كيف أنظم الحجرة وأنت هنا ؟ أولا استمعوقنى ، (ثانيا) ربما — يتلف أناقتك — الفبار !

يحدد اليها النظر ، ثم تواتيها الشجاعة فتقول :

— هل يأذن سيدى في الخروج حتى .. حتى .. ؟

يرفع حاجبيه ويقول : تجاهلينى ، . وقومى بملك !

تود محتجة : كيف ؟

يقول بصرامة لا تجادلينى !

تحاول أولا أن تزيل الاتربة من على النوافذ كما هو مألوف ، لكنها في ارتباكها تزيله من على التسريحة ، ثم تروح وتجدى قلقا محيرة ، تسمع كلماته كالطارق !

— الا أخبرينى : لماذا سافاك جافتان ؟ انهما تذكرائنى بسيقان الماصر ! ها ، هه ألم يفازلك أحد ؟ لعله الطاهى ! أنا لا أقول هذا الا لأنير لك الطريق ، فربما يصور لك ضرورك أنك حسناء ! ستمعيشين خادمة

وتموتين خادمة ، وان كان لا بد من الزوج (ثم قلب شفتيه) فلن يكون
الا السائق أو الجانيبي !

حتى طريقة عملك لا تعجبني ، فانت تستبدلين الاوضاع و...
اجتاحها الغضب وسألت نفسها : انه فظ غليظ وحيد ، مدلل .
امسك بيديه الصولجان وهو (فى اللفة) أفسدته أمه ويئسته ولكن أنا ؟
ما الذى يدفعنى لتحمله ؟ آه ! لقمة العيش وأنى أننى لا حول لها
ولا قوة !

تنتهى من عملها وتحاول الخروج من الحجرة بحيث تتقهقر الى
الخلف ، فلا يصح أن تسيير مولية له ظهرها ، هكذا كان الاتيكيت !

تسأله بصوت رقيق خاضع مع أن كل ما فيها يصرخ ، يولول ،
يصخب ، يندمد ، الى الجحيم .

تقول : هل يأذن لى سيدى بالخروج ؟

يأتيها صوته : لقد نسيت شيئا ، ثم تهرق ميناء ويشير ييده
ناحية مسند كرسيه الذى يجلس عليه : هنا غبار كثيف !

.. لم أجزئ ، لم أستطع ، وانت تشغل المقعد .

.. ليس لك عذر ، وبخاصة بعد أن طلبت منك .

تقترب منه وفى يدها المنفضة المزيلة للأتربة ، . تلمس جونيلتها
قمماش بيجامته فتشعر بالتأفف وفى ثانية تقفز الى الخلف .

يشعر هو بكل ما حدث ، فيمسك ذراعها وتحس بقوة كأنه حديد
قوى أخرس ، ويقول بغضب : ما الذى يفزعك ؟ هل أنا غول ؟

تسكت ولا تعلق وشيء فى نفسها يردد : ليتك تموت ، تبعد عنى ،
أو فلتنشق الأرض وتبتلعنى !

قوة قاهرة تسكن من روعها .. تهدئها .. تهددها .. تجاهليه
.. تخطفه .. انه لا يفضلك فى شيء .. تتمم عملها .. وفى تقهقرها
تحدد اليه البصر .

وتفلق الباب من الخارج ، فتتنفس هواء جديدا .

بعد أيام وفى (الأوفيس) وهى تجالس (الست الدادة) يأتى

ذكر حكمت ، وتلمع عائشة بواذر شيء على محيا الدادة ، يدفعها الفضول والشفقة والحيرة كى تسألها ما خبر حكمت ؟

ترفع الدادة رأسها الذى وخطه بعض الشيب ثم تعدل من ربطة مندبلها الذى يلم شعرها وتتنهد . تمسك عائشة يدها وتضغطها ويأتيها حالا الجواب :

تقول الدادة : لست أدري ماذا أقول ؟ السفرجى زنجى (وطبعه حامى) لم تضحك كأنها تبكى !

الله أعلم ماذا حدث بينهما ، يبدو انه عاملها بفظاظة أو اشتكاها عند الست الكبيرة ، لا استطيع أن أجزم بشيء ، فقد سمعت نقاشا يدور بينهما (أعنى بين حكمت والسفرجى) وبعدها انتقل الى الست الكبيرة ، وثانى يوم خرجت حكمت ولم تعد ، بل أجد وجه الست الكبيرة يتكرر عند ذكر اسمها .

تقول عائشة بثقة : اسمى يا ست الدادة ، أنا لم اعد صغيرة !
لم ترضى سيدى « عادل » ؟

وتبرق عينا الدادة ولا ترد .

تكمل عائشة حديثها : لماذا لم ترضعيه لبنا صافيا ؟

أما أنا .. فلن أخرج من السراى الا بارادتى .

تقرع الجرس مرتين . ان النداء موجه لها من الست الكبيرة .
نهول وتستقبلها : نعم .

بتسم السيدة الكبيرة ابتسامتها الكالحة وتقول بصوتها الذى يشبه صوت الرجل المايح : هيه ماذا وراك يا عائشة ؟ ثم ترفع يدها ، لن اطيّل عليك هل نسيت ما لقننتك اياه من تعليمات بشأن ..

فاكملت عائشة : اعرف بشأن سيدى عادل بك ، يا سيدتى اكلمك كأنك كل مالى فى حياتى : سيدى عادل بك يريدنى أن أطيعه حتى لو قال لى اقذفى بنفسك من النافذة ! لكننى لم أفعل هذا ، بل فعلت ماهو افدح ، لم أجادله اطلاقا ، اتسمعيننى يا سيدتى اطلاقا ؟ والان أريد أن اعرف بالضبط مركزى هنا ؟ هل أنا خادمتة الخاصة ؟ ان كان الأمر كذلك فسأبحث لى من ماوى !

لاول مرة منذ عشر سنوات يخرج صوتها عاليا - بعض الشيء -
وافقا من نفسه . هي نفسها لم تدرك : هل كان هذا صوتها حقا أو صوتا
آخر ؟

وجدت نفسها - وهي تتحدث - ترفع يدها فاستكثرت هذا
واذا بها تخفضها ثم تنكس رأسها .

المجيب أن « عقيلة هانم » بعد أن اخذت من حديث عائشة قالت
وكان عقلها الباطن هو الذى يتكلم : لو كنا عامليناه هكذا أو واجهناه ما
أوصلناه الى ما هو فيه من تسلط وجبروت !

وتظاهرت عائشة بأنها لم تسمع ضعفها وهو ينوء بالحقيقة ،
لكنها انتهزتها فرصة فقالت : والان ماذا تريد سيدتى ؟

ولدمدم السيدة فلا تدرك عائشة : هل تحدثت نفسها هي أو
تحدثها ؟ انا نفسى فى حيرة ، على كل حال أخف الضررين : اسمعى
يا عائشة ، ستكونين خادمة عادل الخاصة .

يرتج عليها القول ، ثم سرعان ما تتماسك وتقول باعتداد : هل
من عادته ، من عادتك أن تخدمه فتاة ؟ - ولم تتح لها فرصة لكى
ترد - مثلا . حكمت لماذا لم تلحق بخدمته ؟

ترد السيدة وقد بدأت تنهار ، تعلمين أن حكمت لم تكن سوى
خياطة بسيطة . لا تعرف كيف تنظم حجرة ، أما أنت فقد مارست
عملك باشراف وذوق الغالية نبيلة .

تقول عائشة باستخفاف : كان يمكن أن يحدث هذا لحكمت لو
وجهت الوجهة الصحيحة ، يؤسفنى يا سيدتى أن أرفض ، واسمعى
لى أن اغادر السراى !

يجتاح الخوف عقيلة هانم فتقول يشبه استجداء : لا تكونى
مجنونة ، أحيانا تخدمينه ، وانت فى خدمتى الامر واحد سيان .

ترد عائشة وقد أحست بالهانة والتسلط : لم اعد أحتمل ، انه
فظيع مع الجميع ، أما معى فكان بيننا ثارا قديما !

الرنة التركية تنتاب « عقيلة هانم » فتقول بفطوسة : اصمعى
يا فتاة ، ولا تنسى نفسك أو مركزك ! انت هنا للطاعة ، للخدمة ،
اتفهمين ؟

عائشة ولم تيسر : نعم يا سيدتى ، لكننى لن اعمل عندكم بعد اليوم !

تنسحب عائشة بهدوء ، كأن شيئا لم يحدث .

تفريق عقيلة هانم ، ثم تسأل نفسها : عجب أمر ابنى اانه يكرهها ، بل يحقرها ، فلماذا يسر بتجريحها ؟

بعد أن مات أبوه لم يعد لى سلطان عليه ، الشخص الوحيد الذى كان يعمل له حسابا نبيلة ، كانت تحد من فظاظته !

لو لم أطاوعه لانتهد متاعبنا ، سأبلغه رأبها ، لكنه عندما يسمع سيسفهنى ويقول : يقول مثلا : ألا تستطيعين أن تسوسى خادمة صغيرة فلاحه ذات وشم ؟ فهو لا يقبل النقاش !

آه ! خطرت لى فكرة الاستعانة بالسك الدادة .

صحت عائشة من نومها على ضجة بالسراى ، ثم لمحت السفرجى يهمس لها من بعيد ، ألم تسمى ؟ فحركت يديها دليل عدم الفهم ! فاسر فى أذنها سيدى عادل بك .

قالت تستحته : ماله ؟

قال : مريض جدا والطبيب (رمزى باشا) فى طريقه إلينا .

تتذكر عائشة ما بينها وبين والدته من حديث حاد فتنكمش ، فلو لم يحدث هذا . فربما وانتهت الجراحة كى تسألها جلية الامر .

وشاهدت السك الدادة تبكى والمرضعات كانهن أمهات . سألتها بهمس : خير يا ست الدادة ؟

قالت بصوت يقطعه البكاء : تشاجر مع والدته لست أدرى بسبب من ؟ ثم حددت إليها النظر .. على أية حال .. فى ليلتها ارتفعت درجة حرارته .. وطفح جلده ببقع حمراء ، وعقيلة هانم .. تعرفين كيف تمزه .. وتغفر له هفواته .. بكى تستسمحه وتقبله . لركة قلب عائشة تحزن وتنسى كل ما بدر منه ولو الى حين .

باتى الطبيب ويدخل الحجرة مع أمه وتشاهدما عائشة بعد ربع الساعة . وعقيلة هانم تسأل الطبيب بلهفة ، لكنه يطلبها هى .

يتسم الطبيب حائرا ثم يقول : والله هذا شأنكم لقد أرشدتكم
للتعليمات ولكم ما تشاءون !

عقيلة هانم ترمق عائشة ثم تولد ابتسامة على شفيتها تنتقل
بسرعة على شفاه عائشة ، تشجع الأخيرة وتقترب بين يدي سيدتها
وتقول : شفاه الله ، انه سيد البيت ، تفرح الأم فرحا شديدا ثم تأخذها
من يدها وتقول : لقد حان الوقت لكي تشبتي طيبة قلبك ، انه يطلبك
لتمريضه ، فما رأيك ؟

عائشة حكمت عليها الظروف ان تعمل خادمة ، أما أخلاقها
صفاتها ، معدنها فأصيلة نظيفة . لقد رقت قلبها وغفرت له كل شيء
انه في مرضه لا حول له ولا قوة والناس بعضها لبعض !

حجرة نومه ذات ضوء معتم مع انه نهار ، الستائر مسدلة ،
الرائحة خليط من الكولونيا وبعض المطهرات ، الأنفاس من تحت
الغطية طويلة منتهدة ، كل شيء في مكانه منسق كأنه عديم الحياة .

تدخل عائشة بخفيها المصنوعين من كعب كاوتش ، مربتها
كالعادة منشة ناصعة البياض ، أناملها الدقيقة نظيفة لمساء ، تجد
بجانب السرير كرسيًا صغيرًا قاعدته مستديرة وأرجله كحماله الزبر
الذي بالبلدة ، لقد عرفته : انه لصبي الطبّاخ حتى الكرسي الذي
ستجلس عليه يجب أن يلائمها هي من حيث الطبقة .

مهما هذبت وكانت آية في النظافة فستبقى كما هي : الخادمة
القابعة المطيعة ! دون تساؤل تجلس على المقعد ، تسمح ضلفة الباب
وهي تفتح ، ثم السيدة عقيلة وهي تحاول الدخول - بدورها - بخفة
ورفق .

حينما تصل إليها تقول لها بصوت خافت فيه - الأمر - لا تنس
الدواء الساعة الثالثة بعد الظهر .

في هذا الوقت لا يستطيع الاستغناء عن فترة النوم ، ولولا هذا
لتوليت الأمر بذلك .

كانت تريد أن تسألها : وهل ستجلسين على هذا المقعد نفسه
(كرسي الأعدام) ؟

التزمت الصمت ، وهزت رأسها الحلو ثم صحبت هذا بابتسامة
وضاءة .

لم يكن أمامها سوى شيئين أن تتأمل الأثاث وتتأمله ، فاختارت الشيء الأول ، ثم لم يعد لها مفر من الآخر .

وجه أسمر مربع ذو لحية نابذة ، ورأس له شعر مجعد فاحم ، محصور في (فيليه شعر) وعينان مسبلتان كثيفتا الرموش ، ثم ارتد بصرها إلى أعلى قليلا فإذا حواجبه (الليفية) ذات الشعيرات الخشنة المنكوشة .

وذاك الفم ذو الشفتين الرقيقتين المغلق في عزم وإصرار وعناد ، أما يده اليمنى الخارجة من الفطاء الوردى فهي مربعة ذات أصابع غليظة قصيرة وأظافر مربعة هي الأخرى مرصعة بشعيرات كثيفة تشبه كثيرا شعر الحواجب لولا أنها أخف .

أحسست بشيء في داخلها يتقزز ، يرتعب ، أدركت أنه ليس لديها أعداء في هذا العالم سواء ، كرهها له تغلب على كرهها للخالة محاسن وزوج الحاجة حسنية ، لكنه يقل قليلا عن مقتها للانجليز !

تدخل علينا الست الدادة ساعة الظهيرة لتضع أمامها بعض الشطائر لكنها سرعان ماتغير رأيها فتشير إليها ، انفي ساخذ مكانك حتى تتناولى لقيماتك في الخارج ، ثم أمسكت بأنفها تعبر عن أن جو الحجرة سيفسد من رائحة الطعام وأن هذا هو السبب المباشر لاقتراحها أن تأخذ مكانها مؤقتا .

تبتسم عائشة في نفسها وتقول : لو كانت السيدة الكبيرة مكانى لسمحوا لها بالطهو في الحجرة !

وبدون شهية تاكل ثم سرعان ماترجع الى الحجرة فتجد ست الدادة متأففة يسترعى نظرها أنها تجلس على كرسى الفتيل الذى بالحجرة وتقلب في صفحات مجلة مصورة ثم ترسم ابتسامة على شفيتها وتشير الى عائشة أن تعالى وشاهدى .

تلمع عائشة صورا لنساء عاريات (كما ولدتهن أمهاتهن) في أوضاع مثيرة مغرية ، تحس بالدم الذى يسخن جسمها وبالحياء يقرعها ويكاد يدميها ، تدير ظهرها ثم تقول بصوت خافت وهي مدبرة : سأجلس على مقعدى اللطيف المريح .

وتفهم الست الدادة القفشة ثم تخرج من الحجرة وهي تهز أردافها أولا ثم أكتافها « ثانيا » .

تعرف عائشة أن موعد تعاطي الدواء قد حان منذ أشار (المنبه)
الذى على التسريحة الى الثالثة ، ماذا تفعل كى توقظه ؟ اللهم لطفك ! كيف
لم تفكر من قبل فى أنها كان يجب أن تهيب نفسها لهذا الامر ؟

الحمد لله ، جاء الفرج ، انه يتقلب فى فراشه ستهمس له بصوب
خفيض رقيق : سيدى عادل بك ، سيدى عادل بك ، يفتح عينيه نصف
فتحة ثم ترتسم ابتسامة خفيفة على شفتيه « يا نهار أبيض » لابد انه
يحلم ! بل لابد أنها هى الأخرى تحلم ! انه فى المرات القليلة التى شاهدها
يبتسم فيها كانت تعقب ابتسامته مصيبة ، أو هو بتعبير أدق لا يستعملها
الا ليبيد من امامه تماما الهدوء الذى يسبق العاصفة !

وبهزة من كنفها تنزع نفسها : وأنا مالى ! المهم أن أنتهزها فرصة ،
تقوم من على كرسيها وتقرب منه ثم تقول ثانية : لقد حان ميعاد الدواء
ياسيدى .

تناول الزجاجاة - وبأصابع مرتجفة - تصب قليلا من الدواء فى
فنجانة قهوة صغيرة نظيفة وتناولها إياها بعد أن تساعده على أن يجلس
بحيث يستند ظهره الى السرير .

يهز رأسه كأنه يشكرها ثم تلمع تعبيرات وجهه المتقرزة وهو يتناول
الدواء فتخفف عنه قائلة ... بالشفاء .

يستمر فى جلسته لكنها تنبهه برفق ، ليستلقى ثانية ، وبالتدريج
يأخذ جسمه فى الهبوط حتى ينام نوما مريحا وابتسم فى حنان ثم يقمض
عينيه . تقول لنفسها : ليس بمستبعد أن عدوى المرض انتقلت منه الى،
وعلى ذلك فمن تهيمات الحمى خيل الى انه يبتسم ويطيع ، يطيعنى أنا
الزبالة ؟ تحس بالآلام فى ظهرها فتدلكه بيديها وتعرف أن السبب هو هذا
المقعد اللعين .

يلمحها هو ويدرك كل شئ ، فيشير الى الكرسى الفوتيل ، لكنها
تعرض بابتسامة حلوة وتقول برقة : لم تكن هذه أوامر الست الكبيرة ،
لكن سحنته تتقلب « يانهار أسود ! » ويدمد ثم يشير الى نفسه : أنا هنا
صاحب الكلمة ، فتقول فى نفسها : انه قانون يعرفه الكل .

تضطر لاغتصاب ابتسامة ، تمشى مع الموقف وتنتقل الى حيث أمرها
الى الفوتيل ، تعدل من وضعها ومن وضع صغيرتها الغريبة الفاحمة ، ثم
تذكر أنها ستمكث بجانبه فترة ليست بالقصيرة ، تراه كأنها تستأذنه
لتأتى بمفرش تطرزه كى يضيع الوقت فى عمل ذى فائدة .. بعين واحدة

منه يعرف نيتها فيهمس من بين أسنانه .. لا تتأخرى .. تهوّل الى الخارج وتأتى بمفرشها وخيوطها وإبرتها تدخّل برفق لتجده (فى سايح نومه) ويبدو أن لدوء جوّ الحجرة والرائحة اللطيفة المنبعثة من العطور الخفيفة والمطهرات ثمّ دأبها على التطريز أسلمها للنعاس .

تغيرت اللوحة : هو ببعض حيويته يجلس متربعا على السرير وكل النوم ذهب منه ، وهنّ فى عالم آخر تحوطها وتسندها الملائكة يتأملها .. يفحصها ، هو الخير الضليع بالنساء ، ثمّ يقول فى نفسه : ترى ستكون من نصيب من ؟ لماذا أريد أن أحطمها ؟ ليس فيها من أخلاق الخادّات أية لحة .. أمن طبقتنا هى ؟ (ثمّ تنضمّ حواجبه الى عينيه) وحالا يطرد الفكرة من رأسه ويستقرّ أخيرا أنها من الطبقة المتوسطة .. ربما ...

ان من يهيبىء مثلها السراى ، السراى الكبيرة التى تحكم البلاد .. تأتى بعض الجوارى (السوداوات أو البيضاءات) الى السراى وهنّ فى أوائل شبابهنّ حتى يصرنّ عروسات ، أما سراينا فهى (على قدنا) فما وضعها تماما ؟ هل مأكلاها وملبسها (يززعزع) من ميزانيتنا ؟

ثمّ يضحك ضحكة قصيرة كأنه يسخر من نفسه (غير معقول ، غير معقول) اطلاقا أتروق لى هى ؟ ثمّ يهز كتفه بصلف : لماذا تجتاحنى الرغبة فى أن أقتلها ، أن أختفها ثمّ ينظر الى يديه (ييدى هاتين) ؟ كلها حنان ، رقة ، خضوع ، وطاعة تامة ، لعلها مثلجة كالجلالاس أو أنها جسم بلا روح ، واذا كانت بلا روح فما معنى رقتها ؟

ثمّ يستلقى على جنبه بعنف ويقول بصوت مسموع : أف ! مالى ومالها ؟ (بلا قرف) .

تستيقظ بعد أن تسمع هديره ، فى الحال تعدل من ذيل الثوب وتلملم ملابسها ، لعل لحماها انكشف فى اثناء نومها (يا نهار ابيض ! نوم ! هل نامت ؟ استرها ياكريم) .

سرّيعا بنظرات خاطفة تلمحه يبتسم ؟ انها الابتسامة القديمة المألوفة ، جميل ، جميل جدا .

تقسوم من على الفتيل ، وتذهب اليه قائلة : هل تحتاج لشيء يا صيدى ؟

ماشاء الله ! لقد بدأ يسترد عافيته ، اللون الوردى كاد يلون خديه وتبسم ابتسامة من نوع مخالف .. ملائكية .. فطرية .. حالة .

يرد أريدك !

تقول في نفسها : أريدك ! يريدني ؟ لماذا ؟ تخرج طنونها فتسأله :

لأي شيء ؟

يحملق إليها .. انني أريدك وكفى ، تعالى هنا .. بجانبى على السرير . ألا تسمعينني ؟ ساعلمك كيف نلعب الورق ، حتى تتسلى مع الدادة . هذا هو الشيء الوحيد الذى لم تتعلميه ، لو أتقنته فلن يبقى هناك حاجز بيننا وبينك ، لقد سمعتك تتكلمين ببعض الكلمات الفرنسية والانجليزية .. و ..

تأمله وتقول : أهذا هو جزائى ؟ ماذا يريد مني ؟ أن أجلس بجانبه على السرير (طرى) وسأستريح .. الى متى ؟ وما الذى سأجنيه بعد الراحة ؟ النوم ؟ اللوعة ؟

يتخشب جسمها .. وتلمع عيناها .

ثم حدث شيء غريب قالت بصوت فيه صلف السمك الكبيرة واعتداد نبيلة هانم : واذا رفضت ياسيدى حتى لو قذفت بى من النافذة !

ينظر إليها بحدة ثم يقهقه ويقول بصوت (حاول أن يجعله طبيعيا) : هل تسمحين لى بذكر أسباب الرفض ؟ قالها وبداء تتحركان بطريقة مفتعلة فيها الهزء والسخرية وتحمل ورامها الكثير .

ترد بالمعجزة نفسها : ليس هذا عملى .

يقول : وهل من بين أعمالك أن تمرضينى ؟

— من أجل الخير ياسيدى .

— اذن فانا من بين أعمالك الخيرية .

—

فجأة هدأت العاصفة ، لقد قرع الباب ، ودخلت الام تقول بحنان : كيف حالك يا عادل ؟

— زفت !

— لماذا ؟ كفى الله الشر .

يبتسم ابتسامته الصفراء ويقول مشيرا الى عائشة : اسألها .

— لقد انتابت سيدى حمى ، جعلته يتفوه ببعض الكلمات الخرفة ،
ولم يصدق الا عندما أخبرته •

تسأل الأم بانزعاج : ماذا قال ؟

— كان يريدنى أن ألاعب الورق بجانبه على السرير !

(تفهم عقيلة هانم ثم تغضى) فتنتهز عائشة الظرف وتخرج مولية
لهما وجهها •

— أسمحان لى ببعض الراحة ؟

ثم تغلق الباب من الخارج •

بعد بضعة أيام يأتهم الطبيب الذى يقرر أن (عادل) بدأ يسترد
صحته ، لكنه منعه فى الايام المقبلة أن يسهر أو أن يدخن ، وعلى ذلك
فعائشة متمشية مع الظروف ، قل عدد الساعات التى كانت تقضيها بجانب
سرير عادل •

عقيلة هانم أهدت إليها (شكمجية) وهى صندوق مزركش لونه
ذهبى عاتم به مفتاح وقفل ، عادة تحفظ فى داخله بعض الأوراق المالية أو
بعض قطع المجوهرات •

سرت عائشة جدا بالهدية وعرفت أنها نظرا لخدمتها وتمريضها
لما دل بإخلاص وعناية — قد استحققتها عن جدارة • • تمر بعض الايام
التالية وقد استرد فيها عادل كل عافيته ، فى المساء تقام مأدبة عشاء
احتفالا بشفاؤه التام ، وتجى نبيلة مع زوجها •

تراها عائشة وقد ازداد وزنها وتألقت عيناها ، وكادت تكتمل فيها
معالم المرأة الناضجة ، تلمع عائشة على مائدة الطعام بعض الخمر ،
فتعجب عندما تذكر نصائح الطبيب •

وعندما ينتهى العشاء والكل يهجع وتخرج نبيلة مع زوجها تنهيا
هى للنوم ، تخلع ملابسها ، وترتدى قميصها ، ثم تتأمل نفسها فى المرآة ،
فتلمح نهديها الكرويين وخصرها النحيل وأفخاذها الممتلئة فى تناسق ،
ويحلو لها أن ترفع قليلا طرف القميص لتدقق النظر الى ساقها •

لقد قال لها عادل بك : انهما تشبهان سيقان الماز ، له الله ! لقد
قالت لها نبيلة — مرة — ليت لى مثل ساقيك فهما ملفوفتان ورجالنا وخاصة
الشرقيين يعملون جدا لهذا النوع •

ثم تستدير .. ببطء مثير ، وبهيئتها الجانبية تلمح اردافها المستديرة .

وأخيرا عندما تتأمل قسماتها في المرأة لاتلمح وجهها فقط ،
لقد كانا وجهين : وجهها ووجه عادل بك !

تنتابها رعشة وجلة وتستدير مولية وجهها ناحية الباب .. لأول مرة تنسى اغلاقه بالمفتاح .

لا شعوريا ترفع ذراعها الى صدرها الناهد محاولة اخفاء نفسها .. ممتلكاتها .. مدخراتها .

تبرق عيناها فتسأل بصوت محشرج : ماذا تريد ؟ كانت السيدة
وكان العبد .. كانت المالكة وكان المستجدي .

انه يرتدى (المنامة) المخططة كالخمار الوحشي وعلى رأسه السكير
الحاوي (فيليه الشعر) وجاكيت البيجامة مفتوحة لتظهر من فتحته شعر
صدره الحيواني المزوج بعرق العافية والشباب .

يقول بصوت مستكين : عائشة ! عائشة !

فتصرخ وكان الصوت يخرج من يافوخها لا من فمها .

قلت لك : اخرج هذه غرفتي وأنا بملابس النوم والوقت بعد
منتصف الليل .

ينحنى جسمه كأنه يريد أن يختفي ، يستتر عن أعين الفضوليين ،
كوني عاقلة يا عائشة ، لا تثيري شغباً .. لا .

يعلو صوتها : سيزداد صراخي ان لم تخرج .

ثم تسترد نفسها .. كم مرة حاولت ؟ هيه ؟

هذه هي الهفوة الوحيدة التي صدرت مني ، في كل ليلة ، في كل
مساء أغلق على نفسي الباب .

هل هي مصادفة أن تفلح في الدخول هذه الليلة بالذات والباب
يسهل فتحه ؟

يرفع يده ، يريد أن يلمسها .

تلمح (الشكمية) عنوان الاخلاص والوفاء .

تلمسها وتبرق عيناها ثم تهدده قائلة : خطوة واحدة وسأقذف بها
ناحيتك ليتك تموت ! تتبدد !

أكرهك وأتمنى أن تخرج ولا تعود ، كل ما فيك ينقرني صوتك .
نظراتك ، هيئتك ، ملايسك اذا تصادف وكانت بين يدي أتمنى أن
أحرقها ، ماذا تظن نفسك ؟

إنسان تافه ، لا يعمل ، لا يقرأ ، لا يتحدث كحسين بك الرجل
العظيم الذي أحترمه ، تستمر في صخبها وثورتها ، وعندما يجيء ذكر
حسين بك تحمر عيناه ويغل الدم في عروقه .

في أثناء ثورتها تنسى نفسها فيتهدل شعرها ، يغطيها ، يسترها
يحميها ، لكن كيف ؟ ان القميص يكشف كتفها العاجي المستدير الناعم
المصقول ؟ تستبد به الفكرة يجري ناحيتها ثم بكل ما استرده من عافية
يمسكها من ظهرها ثم تلمس شفتاه شفتيها الحمرابين النافرتين ..
تشم رائحة خمره المعبقة . تجمع كل ما في فمها من لعاب وتقدف به
مرة واحدة الى وجهه المتوحش الثائر .

يلمح مظلة على كرسي في الركن يمسك بها وينهال بها عليها على
رأسها وكتفها ، وأردافها ، من شدة آلام الضرب تقع على الأرض وتجهش
بالبكاء ، ثم تصرخ : أمقتك يا متوحش ، يا سفيه ! يا بغل ! يا خنزير !
عرفت شرك ، لقد سطوت على عرض حكمت ، اضرب . اضرب كما
شئت . لكننى سأفوز ، سأثقلبك عليك !

وبقفزة واحدة تمسك (الشكمية) وتقدفه بها فيخرج من حجرتها
مهرولا ، وهو يصخب : ساريك ، ساريك ، يا خادمة ، يا حقيرة !
تصرخ بأعلى صوتها : تعالوا جميعا كلكم ، لتشاهدوا (عادل بك)
يريد اغتصابي ، الجبان ! الجبان ! الجبان !

عادل .. كل الظروف والملابسات خلقت منه انسانا مستبدا
أوهم نفسه أنه ان لم يتول القيادة أنهار كل شيء .. ورث عن خاله
الفظاظة والشراسة ، لم يعود منح حنانه لأحد ، هذا ان كان هناك حنان
يقمره ، بينه وبين نفسه يعرف ويدرك أنه ليس هناك - من يفتقده -
حتى أمه ، تمنحه عطفها وكأنه واجب أو ضريبة .

النساء من طبقتهم : القريبات منهن أو اللاتي صاهرنهم يتوجسن
منه خيفة .

وعلى ذلك لم يكن هناك مناص من أن يتقرب الى الجاهلات البدائيات

معظمهم من الخاديات أو من الطبقة الكادحة ناهيك بالعاهرات اللاتي
يمنحن بسخاء .

حكمت لامتة .. لكنها .. كغيرها لم يجد فيها طعما جديدا .

حدث ما حدث بينهما ، لأنه كان لا بد أن يحدث ، سواء كان اسمها
حكمت أو خديجة ، فقد كانت تتمتع بكل ما يرضيه ، يرضى غروره أو
مرضه .

عائشة نوع جديد ، غريب ، أو لعله طريف جدا . الأنوثة من
مميزاتها . الرقة ، النعومة ، لكن في ظروف معينة خاصة .

يعيبها .. مرضها بشيء يسمى .. الكرامة وشيء آخر أفدح وهو
فرط الحساسية .

أولا .. اشتهاها كدابه ، ولما تمنعت واستكبرت طهنته ومزقته،
فأوهمه تسلطه لا كبرياؤه أنها لا تجسر على الارتقاء الى مستواه ، لكنها
تمادت وصمدت ، اجتاحتها مشاعر رجل الغاب فعاند وكابر .

ولما صرعه المرض تخلت عنه قوته المسماة - فلان وخادع حينما
مرضته قاومت ظلمه وتعننته ، فقلبتة على أمره ، حينئذ ، وحينئذ فقط
خاطبت قلبه ، هذا القلب المجرى الذي لم يخلق الا لكي يدق ومنه تنبعث
حياة ، ولتكن أية حياة .

حينما كان ينعم النظر الى عينيها كان يلمح فيهما : أننى أغوص
الى أعماقك القدرة وأفهمك، لكننى لا أخافك ، بل أخاف لقمة عيشى
الطاهرة .

لم يكن من الممكن اتخاذها خلية الا بالاغتصاب .

أما أن تكون خلية .. فالموت - لديه - أفضل وأهف .

الحل الثالث أن يتجاهلها بأن يبيت صرخات قلبه العاوية وكان هذا
أصعب على نفسه من كل الحلول .

الحب ، الحب الحقيقى الذى يحتاج النفس والقلب والجسم يبنى
على الضعف .. المنح .. البلل .. على التضحية .

لأول مرة بعد أن ناهز عادل الثلاثين من عمره يحس بأنه ضعيف
متخاذل ، يستعذب الذل والمهانة .

لو كانت منحنه شيئا ولو قليلا فيأترى : هل كانت تخمد عاطفته ؟
من يدرى ؟ فخلقه المتسلط الأتاني الصفيق .. من الصعب بل يكاد
يكون مستحيلا أن يتحول هذا كله الى شخصية لينة مستجيبة •

فى سنوات قليلة استطاعت فتاة رقيقة ابنة القرية .. ربيبة المدنية
أن تثنى رقبة شاب وتطرحة أرضا بل ، وتحت قدميها !

قاومت تسلطه بالتجاهل والاباء ، وسندت أذنيها عن صرخاته التي
كانت تحمل فى طياتها الاستجداء والذل •

صرعته بكبريائها وصمودها وشجاعتها •

ولما فضحته أمام رعيته وملأت الأسماع بانتصارها أخدمت فيه
أنفاسه المتبقية وبعد أن ضربها أدرك أنه أيقظ فيها العفة التي كانت
تختزنها لمن هو جدير بها •

سمعها فى دفاعها وهى تنوه باسم حسين يسرى •

دخل حجرته متخاذلا ولم يجد شيئا يضربه سوى رأسه .. فى
الحائط !

لم يكن أمام عائشة الا طريقان : اما أن ترجع الى القرية وهو أمر
يكاد يكون مستحيلا ، واما أن تلجأ الى من حماتها وصانتها وهذبته
« الست نبيلة هانم » •

وجدت نفسها تجمع حاجاتها ، بجانبها السفرجى الذى قيل عنه
فى يوم ما : انه المقتصب الجبار بالنسبة لحكمت ، تسبجه دموعه على
فراقها ، لكنه بينه وبين نفسه يحييها ويكبرها ، فقد صارعت من ؟
الوحش الذى يجلجل صوته فيخترق الجدران .. الست الدادة والثنى قيل
لها فى يوم ما : انك لم ترضعيه لبنا صافيا تنحنى - أيضا بينها وبين
نفسها - لمخلوقة تبدو فى نظر الكثيرين ضعيفة وتدعو لها من خلجات
قلبها أن تصونها العناية الالهية وتحميها ، عقيلة هانم الشريكة غير
المباشرة فى افساد ابنها تختفى عن الأنظار المتطلعة الشامتة فى
حجرتها •

الغريب أن عائشة استردت قوتها وحيويتها وأحست أنها فى
طريقها الى حياة (ثالثة) تكاد تكون مشرقة ، ففى حياتها الأولى ذاق
مرارة الحرمان .. حرمان اللقمة .. حرمان العطف .. عطف الأب .. عطف

الأم ، شاهدت كيف تمنح الام وكيف تتلقى الابنة ، والنماذج هي الحاجة حسنية وسيدة ابنتها ، ثم عقيلة هانم وابنتها نبيلة .

وفي حياتها (الثانية) راقبت نموها الجسماني والعقل واستطاعت باحتكاكها بنماذج جديدة من لون وطعم مختلف أن تخطو خطوات واسعة لكنها وثيدة ، ثم أدركت أخيرا أن في استطاعتها - ولو أنه شيء صعب - أن تعتمد على نفسها .

رافقها أصحابها الأوفياء : الطاهى وصبيانه ، السفرجى ، الست الدادة ، السائق ، ثم الجنائى ، وسائق المنطور (حنطور السراى) أوصلها حتى باب السراى ، سراى نبيلة هانم .

نبيلة كانت على علم بحضورها فقد أخطرتها تليفونيا ، وأخذتها بين أحضانها ، ثم أشارت إليها بطرف خفى كى تحتفى فى ركن بعيد ، وافتتحت الحديث بنبيلة هانم قائلة وهى ترفع يدها الدقيقة الحلوة : لا تقولى شيئا .

لقد صنعت ما لم أستطع أنا أو (ماما) أن تصنعه . عادل أخى لكنه فاسد . ولو أنى كنت أريدك وانت خارجة من عندنا أن تكونى محبلة بجهاز عرسك (ثم خبطت فخذها بيدها) وهى تقول : قسم ونصيب .

عائشة بعد أن صقلت التجارب تريد أن تدخل فى الموضوع مباشرة ولذا فهى (بلباقتها المكتسبة) تقول : أرجوك يا سيدتى أن تعلمى بأن وجودى معك سسيكون لأيام قليلة (ثم ترفع يدها هى الأخرى ولكن بطريقة خاضعة) « ان كان حبيبك غسل مآتلحسوش كله » أعرف أنك ستدليننى على الطريق الصحيح الذى منه ساستقر فى حياة جديدة مريحة ، تضمحك نبيلة حتى تظهر أسنانها العاجية ثم تربت على كتفها وتقول : بنت حلال ، أتعلمين ؟ (ثم تضم شفقتها بطريقة مداعبة وتكاد تولد ابتسامة على شفقتها) من سيزورنا الليلة ؟ حذى ؟ تماما ، تماما ، انه هو حسين بك يسرى ، هاهو ذا وجهك يشرق ! ألم أقل لك ؟ المهم المقابل الذى أريده منك . كعكة الفطير بالتفاح التى تعلمت صنعها من الطاهى ، هه ! ما رأيك ؟

تلمع عينا عائشة ويتورد خداهما وتحس بأنه ما حدث لهما من أيام قليلة كالكابوس صحت كى لا تجد منه سوى ذكرى كأنها لم تكن ، هذا الرجل حسين يسرى فى مقابلتين اثنتين استطاع أن (يقلبها) تماما كما كانت (تقلب) جوارب العائلة . . لكن شتان !

تقفز سريعا من امام نبيلة ، وتترك حاجياتها ، ثم تستعلم عن مكان
المطبخ لتهيء الفطيرة كما وعدت سيدنها •

فى المساء تأخذها نبيلة الى حجرتها وتقول لها همسا : حماتى
لا تعرف من قصتك الا القليل المشرف ، فأرجوك بل أناشدك أن ترتدى
هذا الثوب الابيض ، ان اللون الابيض حلو عليك (ثم تنهدت اعجابا)
فى هذا المساء يا عائشة أتمنى لك ليلة طيبة •

ابتسامة عائشة الخلابة وعيناها النجلوان وقوامها اللدن وبشرتها
ذات اللون الواحد ، ثم حديثها العذب استطاع كل ذلك (مكملا) أن
يدير رموس حماة نبيلة هانم وحميها وزوجها •

وأحسنت بأن الدنيا ما زالت بخير •

أما من استطاع أن يطويها فى مرتين اثنتين فقد دخل عليهم
بابتسامته الوضاعة ، ثم عندما لمحها ففر فاه ومد كلتا يديه مسلما
عليها •

وبعد أن انتهى العشاء أمسك بها من يدها ، ثم قال برقة وحزم :
هانى ما عندك يا عائشة ، كل ما عندك •

فى الصباح الباكر تستيقظ عائشة كالطفلة النشيطة وتحبى
سيدتها نبيلة ، فتغمز لها الأخيرة بطرف عينها وتقول : نعم أنا على
استعداد ، لكن بعد الافطار •

تنفرد عائشة بنفسها وتفكر فيما حدث أمس مساء ، ثم تستغرق
فى التأمل ولا تصحو الا عندما تسمع صوت سيدتها وهى تقول مشيرة الى
راسها : هذا المخ (العالى) أطلعنى على كل شيء ، حسين بك مريع جدا
مع خدمه وأتباعه ، انه كما ترينه بالرقه والعدوبة نفسيهما - وأرجو
ألا تظنيهما وقتية - يضيفى على من حوله جوا مستقرا حلوا •

وتهمهم عائشة ببعض كلمات لا تفهمها جيدا نبيلة فتسألها وهى
تمسك خدها : ماذا تقولين يا مكيمة ؟

سرعان ما يبدو الارتباك على محياها وهى تقول : لا شيء ، لا شيء •

فتستحثها نبيلة مشجعة : ماذا وراك ؟ ألم يكن تخمينى مضبوطا ؟

وترد عليها عائشة بصوت مرتعش : تقريبا •

وتذهل نبيلة فتقول بحماس : ماذا تعنين بالله عليك بـ «تقريبا» ؟

عائشة : أقول .. أقول .. لقد .. لقد ..

فتخبط نبيلة هانم كفيها بعضهما ببعض ثم تسألها بمرح : لعل الفضول دفعك فتناولت رشفة من كوب خمر ! ماذا دهاك ؟

وتبتلع عائشة ريقها وتحاول الاجابة لكنها — أخيرا — لا تستطيع وتهمس نبيلة لنفسها : لقد غيرت رأيي فى معنى يبدو أنه .. غبى !

ثم تتأمل محيا عائشة وتسألها هذه المرة بلهجة جديدة : هل عندك الرغبة كى تصسارحيتى بالحديث الذى دار بينك وبين حسين بك ليلة الامسى ؟

ترد عائشة وصوتها يزداد ارتعاشا : جدا ، يا سيدتى جدا ..

نبيلة هانم : اذن ما الذى تنتظرينه ؟

عائشة : ربما لأن ما سأقوله يفضبك ؟

نبيلة وهى تبتسم : لا تكونى ساذجة ، قلت لك : اننى أضمن « حسين بك » أكثر مما أضمن (سراينا) فلا تخافى وعلى (ضمانتى) ثم انه يعيش مع عائلته فما معنى خوفك ؟

عائشة وهى تمسك رأسها : الموضوع ليس كما تتصورين ..

نبيلة فى شبه ذهول : هيه ؟

عائشة وقد وافتها شجاعتهما : لقد سردت عليه كل ما حدث عندهم كله بالتفاصيل والجزئيات .. وبعدها .. وبعدها عرض على الزواج ..

صوت نبيلة وقد علا وكأنه خارج من ميكروفون : يانهارك أسود .. عائشة ؟ ثم أمسكتها من كتفها بطريقة لا أثر للحنان فيها ، هل بلغت بك المهارة أن توقعيه ؟ هذا ، هذا الرجل الذى لم تستطع أجمل جيلات العائلة ان توقعه فى حبالها ! اننى لا أكاد أصدق ، عائشة هل نسيت نفسك ؟ ومن أين أتيت ؟ وكيف نشأت ؟ ثم أشارت الى جبهتها ، هذا الوشم الأخضر الدامع انه سيرا ففك مدى حياتك ! ان عائلتنا بعد العائلة الحاكمة فى البلد ، أفيق لنفسك ! لولا أن « حسين بك يسرى » لا يشرب الخمر على ما أعرف .. لقلت انه كان سكران ، ستكون فضيحة ، مصيبة ، كارثة ، وسيشير الكل الى أننى السبب ، فلولاى لبقيت القروية البليدة الحشنة !

كانت عائشة تتوقع أكثر من ذلك لكن تضلحيتها هذه المرة اذا
ما رفضت العرض ستكون فى مصلحة من ؟ لم تجد مقرا من الصمود أمام
من تمثل الطبقة الحاكمة ، فسرعان ما تغيرت نغمتها ، واذا بها تسترجع
شجاعتها فتقول برصانة : لا أنكر جميلك على لكننى لم أرتب شيئا ،
فلست أنا التى أوعزت لأخيك أن يطاردنى ويضطهدنى ويعذبنى ثم
يضربنى لأننى لم أستجب لنزواته ، وحسين بك خلق شاعرا رقيقا يحب
طبقتنا ، وليس لى فى ذلك أى ذنب ؟

ولذلك فيؤسفنى أننى لن أرفض عرضه والآن ماذا يمكننى أن
أصنعه لك كى أرد جميلك ؟

تبرق عينا نبيلة ثم تقول بصوت مبحوح : الا ترىنى وجهك بعد
الآن !



القسم الثالث



في مدة وجيزة جمعت عائشة أشياءها مرتين وفي أثناء انهماكها
تستعيد ما حدث بينها وبين من عرض عليها النور والامل ، نعم لقد
أخرجت له كل ما بنفسها كأنها منومة ، كانت تعرف في نفسها موهبة
عذوبة الحديث التي ورثتها عن أبيها ، ودون أن تفي سردت وعلقت
وعقبت ، وفي فلتات من حديثها كانت ترقبه كان يتالم عندما تتالم ،
وأحيانا تتغير تعبيرات وجهه الى الحماس والتشجيع وفي المواقف الدقيقة
كان اما أن يفضي أو أن يشيح بوجهه ، وأخيرا وبعد أن انتهت .. تأملها
وكانه يراها لأول مرة . ثم قال : كما قلت لك - من قبل - يا عائشة كلنا
من الريف من الأرض الطيبة النقية الطاهرة ومع أن حياة المدينة قد
- جرفتنا الى حد ما - فانها لم تستطع الا أن تزيل بعض الأتربة .

أعذرني في حديثي ، فإن شاعريتي تفضب الكثيرين لأنهم
لا يفهمونها .

أنا دائما أمثل في العائلة - الانسان الشاذ - ولا داعي للتكرار
بأنني لست مثلهم الا في صلة الدم ! عائشة .. انني معجب بك .. وعمرى
خمس وأربعون عاما أى أكاد أكون في عمر أبيك ، ولا تظني أن ظروفيك
وحدها هي التي دفعتني كي اختارك ، لكن طباعك وجوهرك لم أجد لهما
مثيلا فيمن يعيش حولي ، هيه مارأيك في ؟ (ثم أشار الى نفسه) كمريس ؟

ولما اتسعت عينها وفجرت فاما وكادت تولى جزعة وجلة .. أمسك
بها من يديها وقال : غدا ظهرا .. تكونين في بيتي لاتخافي ، ولست ممن
يمزحون في هذه الأمور .

عندما تحضرين ستجدين كل شيء معدا .

تذكرت أن نبيلة - أخبرتها بأنه يعيش مع أهله .. وهذا البيت
اللطيف الذي يهمس - لا أسمع الا اثنين محبين - يكاد يطمعها على ما حدث
فيه من مدة قصيرة .

حسين بك له أم .. وشقيقة . وشقيق لا يذكر اسمه الا لما أما
الوالد فقد رحل عن دنياهم .. عمل كل ما في وسعه كي يوفر لهما الخير .

كانت الأم تتمتع بنعمة خطرهما أعم من حلاوتها ، بدت وكأنها
مستسلمة أو - شبه راضية - ولو أن ذلك لم ينطل على حسين ، أما الابنة
فلا تكاد تقول شيئا سوى انى أطيع أمى .

ابتسمت الأم ابتسامة نصفها حي ونصفها ميت وبانبعائها خرجت
همساتها لابنها (عندك السلامك) ، وحسين ، برغم رفته وليونتسه
رجل ، فقد رد على ابتسامتها بأخرى - حية - قائلا : نعم سألحق
بالسلامك بعض الحمد لزوجتى ، أعنى لعروسى .

فهمت عائشة الموضوع - بالرغم من أنها لم تعرف ما حدث بين زوجها
وأهله فقد حدثها قلبها وأيده عقلها ، لم تكن من اللاتي يتزعمن
الانتصارات على رؤوس الضحايا ، بل كانت تفضل الحبيبات على الحاسدات
والراضيات على الشامتات ، ولكن كيف تملك تغيير النفوس ؟ تسأمل
الصالة وتختار كرسيها من الطراز الكلاسيك وتضطجع عليه وتسند
رأسها الفاحم الجميل بكفيها وتتأمل الأرض ولا تدرى ما الذى جعلها
تتذكر أمها ؟ هذه التي فارقتها وهي تكاد تشب عن الطوق .

كانت فى احتياج الى همسة أم نابعة من قلب خالص ، لأكلمة اشفاق
وتهوين ، أو دعوة طيبة من شقيقة حبيبة ، تشاركها فى آلامها وسعادتها !

لكنها سرعان ما رفعت رأسها واعتدلت فى جلستها وتأملت السقف
المزخرف بالرسوم الملونة الدقيقة وابتسمت وقالت لنفسها : اليوم حياة
جديدة، وعزائى هو حسين الذى بيده أن يعوضنى حنان الأب والام والاخوة
والأخوات ، ثم تفتح بابا جانبا .. يفتح .. يخرج منه نور حسين ،
ابتسامته التى تسبقه واشراقه الذى يلفه ثم يمد اليها كلتا ذراعيه، ياله
من حبيب قال !

تقوم من على كرسيها وترد على ابتسامته ثم تمشى اليه ، ثم يربت
على ظهرها .

ولما تفقق تسأله بصوت الأنثى المحبة الخاضعة : كنت أفضّل ألا
أفصلكم بعضكم عن بعض .

يدلمق قائلا : لا تفكرى الآن الا فى عائشة وحسين .. ما رايك ؟ عيشى
للحظتك ، ولا تحلى نفسك أكثر مما تحتمل .

استطاع حسين بعد أن تم زفافه في هدوء وكتمان أن يحيل عائشة الى وردة نضرة فواحة العطر ، وهب لها كل مايملك من حنان وحب وهيام .

والمسكينة - مع معانته من حرمان وانطواء - أسلمت له كل نفسها حينما كانت تقبع تحت قدميه لتزيل الأتربة التي تغطي حذاءه . . لم تكن بالزوجة الذليلة ، أو الخادمة التي ان لم تقم بواجبها تلفظ الى الشارع بل الحبيبة أُر من تمثل النصف الحلو ، وهى بحنانها ورقتها تزيل لا الأتربة فقط من على حذائه ، بل كل مايكرر صفوه من شوائب ، وهو حينما كان يدلك قدميهما لم يكن الزوج الضعيف المتخاذل - بل النصف الخشن العامى ، والرفيق الأمين والذي بهمساته وحنانه يأسر ولا يهدم بل يبذر كى يحصد .

وقد أفتحت وقد أفلح ومنهما اثمر الحب الأصيل ، لا الحب الطائش المشتعل . . طفلا حبيبا .

لم ينس حسين أن يصقل مواهب زوجته بالاطلاع والقراءة ، فحولها الى ذواقة للادب حتى استطاعت الى حد ما - أن تنقد أبيات شعره ، وبالرغم من أومتها الجارفة لم تنس المصدر العريق . . زوجها الغالى ، فكانت - حتى فى هذا عادلة ، الطفل كان حبيبا مرحا ذكيا له نظرات مشعة لا يمكن أى فرد سواء كان أبا أو عزبا الا أن يأخذه بالأحضان ، وعلى ذلك فمن غير المعقول أن تكون جدته والدة حسين أقل من غيرها فى الاستجابة .

مجعد الصغير كان الطعم .

استرد البيت أقدام الأم (الأولى) ثم تبعها الابنة الشقراء المدللة أخت حسين (دلال) . السيدة الوالدة (بعظمتها وعجفرتها) تريد لحفيدها أن يكون منسقا مهندما حتى فى طريقة بكائه .

الشقراء المدللة (دلال) كان فى أخلاقها وطباعها ما للغايات .

حدث شيء من الصدام بين المراتين ، عائشة وأخت زوجها ، عائشة بالرغم من ريفيتها (السابقة) أصبحت لها لهجة عذبة راقية ، تدخل فى حديثها بعض الكلمات العربية الفصحى مما جعل المقارنة بين الاثنتين سافرة .

دلال تجيد التركية والفرنسية ، والانجليزية ، أما عربيتها (فركيبة لا تكاد تقوم على ساق) !

عائشة امرأة ذات أنوثة فياضة عارمة ، ولكنها هناك فى الداخل فى حجرة نومها مع حليلها فقط ، أما دلال الأرملة اللعوب فأنوثتها معروضة منسقة تماما كفترينة شيكوريل ، ألوان براقة زاهية صارخة لا يدري أحد : من تختص بأسلحتها ؟

و ذات مساء دعا حسين بعض أصدقائه الى العشاء معظمهم أقارب بعيدون •

ليلتها دعت دلال نفسها بالرغم من حضور الزوجات ، كانت ترتدى ثوبا من القטיפه الحالكة كالليل الداكن ، وهنا ازداد لمعان أسلاك شعرها الذهبية ووضحت عاجية عنقها وذراعيها •

وبالكحل القاهم ازدادت زرقة عينيها !

أما ضحكاتها المتتنية المنفمة فقد أسلمت المدعوين لأحلام سابقة لأوانها •

انكشمت الزوجات وأحسسن أنهن عرايا !

أما عائشة فقد انبعثت من كيائها ابتسامات غير مرئية تشوبها السخرية من دلال ، لكن كان هناك واحد ، واحد فقط بغير زوجة مسلح بثقة وبمغامرات عدة • صاحباتها من أمثال دلال •

وبهزة من كتفيه أدرك أنها مثلهن لولا اختلاف الملامح و ...

ثم تمنع فى عائشة التى يراها لأول مرة •• سمع عنها من قبل، وعرف قصتها وهل أمر كهذا يخفى ؟ أدرك جمال شخصيتها وثقتها فى نفسها التى تجعلها لا تلقى بكل ما عندها لمجرد العرض •

أحس بخطورتها النابعة من صمتها المتزن، وبنظرات عينيها السوداوين الواسعتين الحاليتين !

ثم قال لنفسه : انها كالدينامو فى مقدورها أن تنير بيتا بأكمله ، لكنها تملك خزاناً يكفيها العمر كله ، أن تشخصى حسين •• بقى كما هو، بل لعله ازداد ، فهذا الرجل •• رجل بحق •

حالا له أن يستأثر باحترامها، فقد كان يعرف هذا النوع من النساء ، قال سأخاطب عقلها :

فسألها برقة : مارأيك فى كتاب المؤلف (. .) الأخير ؟

ردت عليه (بأكثر رقة) : جيد لولا ٠٠ غلوه في التشاؤم ٠٠ انه يريد أن (يجبر) القارئ على أن يعتنق تشاؤمه بغض النظر عن المنطق ، كنت أفضل أن يعرض وجهة نظره بطريقة غير طريقة (العافية) لعلنى حين ذاك وأنا أمثل إحدى القارئات أن أنحنى له ٠٠ أعنى للكتاب .

واستدارت دلال بعصبية والغيرة تنهشها :

التحدى سافر ، وهذا الشاب بالذات يروق لها ، هيه ماذا عندها نى تنأهب للنزال ؟

ضحكت ضحكة عالية صاخبة ثم وجهت السهم لعائشة : من أين لك كل هذا الحديث يا عائشة ؟ هل يصدق أحد منكم أن ربيبة القرية تجيد التحدث بالقصحي ؟ ياسلام يا حسين يالك من صانع معجزات !

وتنبه لها حسين فأمسكها من ذراعها وهمس لها : هل افطمت فى الشراب ؟

لكنها ردت بصوت عال : لماذا تحدثنى بصوت خفيض ؟ هل الخمر عيب أو لأن زوجتك العزيزة لاتشربها ؟ (ثم تضحك ضحكة مثيرة) لقد قالت لى من قبل : انها تنفر من رائحتها ! ها ٠٠ ها !

لم يكن من عائشة الا أن تتجاهلها حتى لاتنبئها غرضها وهو (التشويش) وبتر الاعجاب الذى كاد يولد ، ولما سكن الجو أكثر مما كان مقدرا غلى الدم فى عروق دلال فرفعت يدها البضة وفاح منها عطر غال ، وأشارت الى عائشة لعلكم تظنوننى مخرفة ! اسالوها لماذا تصر على أن تمسح شعرها بحيث تخفى جبهتها لأنها (ثم أشارت الى جبهتها) تريد أن تخفى الوشم الأخضر الذى يصرخ ويقول : أنا فلاحه ، جلفه ، فلاحه ، فلاحه !

وبانامل عائشة الصنوبرية - تتبسم - ثم تزيل خصلة من شعرها الفاحم لتبرز جبهتها وفي منتصفها وشم أخضر مستدير كالزبيبة وتهمس : لقد ذكرتني يادلان هانم ان الحر لايطاق ، أو لعله الدخان ، وشعرى الكثيف المنسدل يجعل عرقى غزيرا ، شكرا .

وبسرعة ناولت (الضيف المعجب) طبقا فيه الكثير من الحلوى وهى تقول : أريد رأيك فهو من صنع يدى .

ما أسرع ماتمر الايام ! عائشة الرزينة الزوجة المحبة المحبوبة ترعى

بيتها ، وزوجها وابنها الذى أتم السنين من عمره ، من ناحية أم زوجها
تبدى لها الاحترام دون تزلف ، ودلال تتجاهل حماقاتها ورعونتها ، ثم
تقابل كل ذلك بابتسامة ساخرة !

الأم وابنتها يفرهما حتى لا يستطيعان اظهاره ، فعائشة نعم الزوجة
لا يكاد ينقصها شيء حتى نقطة ضعفها على الأقل فى نظر أهل الزوج -
لم تكن تحرك فيها ساكنا ، بل لن تعدى الحقيقة • ان من أسباب شموخها
أنها من قرية كل مافيا نقى طاهر •

هكذا مرت الأيام وإذا بعائشة فى طريقها لتكرر أمومتها وزوجها
حسين يرحب بالنبا ويكاد ينهى لابنه البكر بأن هناك من سيرافقه بعد
فترة وجيزة فى لعبه ومدرسته وطعامه ونومه !

حسين لم يكن له عمل •• بعض الأفدنة القليلة يؤجرها للفلاحين ،
وجل وقته يقضيه فى القراءة والاطلاع حتى تكونت لديه مكتبة حافلة بأداب
الغرب والشرق وعلومهما •

فى صبيحة أحد الأيام اشتكى من صداع لشدته عاقه عن القراءة ، ثم
زال بعد بضع ساعات ، لكن الحالة تكررت ثم فى فترات متقاربة •

الذى يحسم الموقف هو الطبيب ، بعد الفحص قرر أنه مصاب بضغط
الدم والعلاج بعض الأقراص ونظام معين للتغذية •

وقد علق حسين - فيما بعد - على ذلك قائلا وهو يداعب زوجته :
لقد أصبحت زوجة رجل عجوز تنهشه الأمراض (ثم يرفع حاجبه الايمن
ويهز رأسه هزات متوالية بطيئة) ويكمل : ليس هذا فحسب بل المال ،
المال الذى نوهم أنفسنا انه عن طريقه سنسترد صحتنا وعافيتنا ببعض
العقاقير والكلام الفارغ ، هذا المال ليس بكثير •

أما ابتسامة عائشة فهى التى تجيب ، وتتبعها عذوبة حديثها وهى
تقول : لقد حصلت يا حبيبى على كل ماتشتهيه نفسك من ألوان متعددة من
الطعام وقد حان الوقت كى تقلل من دسامتها ، هذا الصداع انذار فقط ،
أعذك بأنك فى أقرب وقت - ليس فقط سنسترد عافيتك ، بل ستمارس
الالعاب الرياضية ! •• يرفع رأسه ببطء •• وينظراته الحاملة يرنو الى
لا شيء •• ثم يهمس : ليتنى أراه •• عائشة : من ؟ حسين يرد بوهن : ••
أخى •• الحياة قاسية •• فرقنا بيننا •• سافر الى الخارج •• بعد أن
عشنا معا نقسم الطعام •• والشراب •• عائشة : •• لكنك لم تحدثنى

عنه بما فيه الكفاية ؟ ، ، ويجيبها ، ، فيما بعد ، ، وربما تجيبك الايام
، ، يا حبيبتي .

يحين مياد الوضع ، وترزق عائشة مولودة شقراء لعلها تشبه عمتها
دلال ، يفرح بها حسين كثيرا ويقول مداعبا زوجه : لقد كنت منظمة جدا
في انتابجك ، ، ولد أولا ، ثم تختمينه ببنت ، ، أو أنك مازلت تريدين
التكرار !

وتضحك عائشة كثيرا ، ، وتخفي وجهها بين الأغطية .

يهرول حسين ويقول : سأحصل تليفونيا بوالدتي وأختي .

في المساء تستقبل الدار الأم الشامخة التي تعلق على النبا قائلة
(وهي ترفع حاجبها وتسبل عينيها وتضخم من صوتها) : البنت جميلة ،
جميلة جدا تشبه دلال ، لولا أن عينيها أكثر اتساعا ، لست أدري لمن ؟
آه ! لو كان في يدي أن أجعلها كما أشتهى لخرجت من تحت يدي (حنة
سنيورة) ، أما دلال التي يتأرجح خصرها ويتثنى كتفاها العاجيان فتقول
موجهة حديثها لوالدتها : الله ! (يا أنه) (وهو نداء الأمومة باللغة
التركية الدارجة) : لو كنت أنجبت طفلة ما كانت تشبهني مثلها .

ويعقب حسين مدهوشا : يا جماعة ! ان ملامحها لم تظهر بعد ماهذه
الأحلام ؟

وترد أمه بكبرياء : انك لاتفهم في النساء !

بعد سنوات قليلة يكمل محمد أربع سنوات من عمره وأخته مها
السنتين ، وكما توقع الأهل تكتمل ملامح الطفلة وتكاد تكون صورة مصغرة
من عمتها لولا أنها تبرزها جمالا ، كانت (جدتها) تقول : ان محمدا أخاها
فلاح مثل ، ، ،

أما هي فنوع راق تماما كابيها وأهل .

ازداد مرض حسين ، وكان لا يواظب على تعاطي الدواء ، ولا يدب على
نظام التغذية (الخفيف) .

كثر صرف المال ، وقلت عافيته .

وفي صبيحة أحد الايام تدخل عائشة بحرص - حجرة نومها -
لتوقظه ، وتسمع شخيره لأول مرة .

فتنهله ، وتفاجأ ، لكنها تقترب من فراشه متوجسة قلقا ، وتمد يدها
الوجهة وتلمس ذؤابة شعره الناعم المنسدل وتلمح عرقا غزيرا على وجهه ،
وفيه المفتوح نصف فتحة ، تلمس وجهه بحتان مستجد ، وتلمح عينيهِ
مفتوحتين بنظرة ناعسة ذاهلة . ثم تظهر على وجهه ابتسامة متهالكة يحاول

الحديث ، فتقرب وجهها أو أذنها بالذات من فمه وتسمعه يقول بحروف متقطعة .. م .. ح .. م .. وم .. ه .. ا .. أريد رؤيتهما .

تتسع عينها ثم تسكت قلبها بأن تقول لنفسها : لا ، غير معقول ، لم يحن الوقت بعد .

ولما يلح ترددتها يستحثها مشيرا برأسه : كما قلت لك .. سريريا .. تجرى مهرولة وتأتى بطفليها ، يسرع محمد ويمسك بيد أبيه قائلا : بابا .. ماله ؟ مريض ؟ ..

أما مها فهي تجرى ناحية التسريحة بسنداجة الاطفال لتحاول تمشيطة شعرها الذهبي .

تأخذها أمها وتحملها على كتفها وتقترب من حسين الذى يهمهم : الحمد لله ، الحمد لله .

لم يبق فى حجرة النوم الا ثلاثة أنفاس بعد أن كانوا أربعة تفاطل عائشة نفسها بعد أن تخرج الطفلين من الحجرة ثم تواجه الحقيقة فتخفى وجهها بين كفيها وتضغطه وتنتحب نحيبا مكتوما وأماؤها تتلوى ولوعتها الدامية تكاد تصرعها ، ثم تنهار ويضى عليها .

فى آخر اليوم يحل السواد بالبيت ويقام الماتم وينصب الصوان أمام المدخل .

يأتى أناس كثيرون يبكون يولولون ، وتعرف عائشة أن زوجها كان ذا مآثر للكثيرين .

تقضى بعد ذلك اليومين التاليين فى حزن عصيب ، وتحاول إبعاد طفليها عند جارة لها مع مرييتهما .

تهدا العاصفة بعض الشيء فتصحو عائشة على ترملها ، وإن طفليها أصبحا يتيمين .

وتصحو أيضا على أن هذا البيت الذى تقطنه ملك حمايتها التى أخبرتها بذلك ، ولو أنها حاولت أن تزيل الكثير من عجرفتها فإن عائشة أدركت أنه لم يعد لها مأوى .

عرفت لأول مرة أن هناك أشخاصا يكونون ما يسمى (بالمجلس الحسبي) وأن عليها أن تنفق على طفليها بحساب لأن هناك من سيحاسبها .

خرجت من الدار على يمينها ابن وعلى يسارها ابنة متجهة الى حياة جديدة !



القسم الرابع



الحزن والكآبة التي ارتسمت معالمها على وجه عائشة أضفيا عليها نوعا جديدا من الجمال ، حده الرداء الاسود والطرحة السوداء وقوامها الفارع وشحوبها ثم دكانة عينيها وأهدابها وشعرها - عرضها كل ذلك للأنظار حينما كانت تبحث عن مسكن يخفيها عن الناس لتستطيع أن تواجه أشجانها وحياتها الجديدة •

اكتشفت في فترة قصيرة بعد ترملها أن زوجها أنفق كل أمواله التي بالبنك على علاجه ، ولما استشارت محاميا تثق فيه : كيف تواجه حياتها ؟ أشار عليها أن تبيع الأفدنة وبالمال تستطيع أن تستثمره بحيث تشرف عليه بنفسها فالأرض من الصير جدا أن ترعاها وتلم بأسرارها وعلى ذلك فقد اختمرت لديها فكرة •

بعد أن استقرت بها الحال في طابق أرضي من حجرتين متلاصقتين وصالة وحمام وما يتبعه استطاعت أن تنفرد بنفسها لتقرر كيف ؟ وأن تستثمر المال الذي أصبح في حوزتها بعد بيع الأفدنة ؟

تخيلت نفسها مع طفليها في بيت تملكه ، الله ! ما أحل أن يعيش الإنسان محتفظا بكرامته طيلة حياته !

لقد تنقلت المسكينة من هنا الى هنا ، الى هناك وهي في كل ذلك في كنف الآخرين •

تاملت ماحولها : سريرا عريضا من (النيكل الفضي) يبدو أنه سيكون من نصيبها وسريرين آخرين من النحاس الذهبى، وتسريحة ومقعدا يبدو أنه مريح وشماعة عالية كالنخلة فروعها تكون هيئة الوردة المستديرة تتلقى كل مايلقى عليها مصنوعة من الخشب البنى الزان •

و « كوميدينو » من نوع خشب الشماعة يفصل بين الأسرة وعليه صورة للمرحوم •

تشكيلة متباينة من قطع الأثاث الا أنها متجانسة بحكم الظروف .
وهناك في الصالة كنبة بين البلدى والاسطامبولى ليس فيها
ما يميزها الا الراحة تجلبها لكل من يجلس عليها حتى ان عائشة نفسها
كانت تفضل النوم أو الجلوس عليها أغلب الأوقات .

الشقة خالية من الكهرباء والانارة كان يستعاض عنها باللمبات الغاز .
أحسست عائشة تماما أنها صاحبة رسالة كبيرة فى عنقها وأنه لم يعد
لديها فى الحياة سوى طفلها ومبادئها .

سألت أهل الحى عن مقال حسن السمعة ماهر فى مهنته كى تبنى
بيتا وأويها هى وطفليها من مال حلال تركه لها زوجها ولو كان يعلم لكافح
وعرق وجاهد حتى يكثر ماله وبذا يضمن لها حياة أكثر راحة وأكثر
استقرارا ولكن من منا يعلم ماسيأتى به الغد ؟

تفنتها واجادتها طهو الطعام أضفيا على ولديها صحة وسعادة ، ثم
مهارتها فى الحياكة جعلتها تقسم أثوابها الى قطع مصغرة تكون فى النهاية
طقما أنيقا لمحمد وأثوابا بسيطة منسقة لها .

استطاعت أن تتخطى العقبات بأن تعد لقمة نظيفة يلتهمها أطفالها
بشهوة وسعادة ، أما هى فكيف كانت تقضى أوقاتها ؟ تتناول الكتب القيمة
من مكتبة المرحوم فتتهل منها بشغف .

تمضى بضعة أشهر فى محل إقامتها الجديد ، ثم تجيئها الحاجة
حسنية من البلدة معزية مهدئة زائرة . فى هذه المرة تصحب معها ابنتها
سيدة التى تزوجت ثم طلقت تحتضنها عائشة وتخرج دموعها وابتهاماتها
وأشجانها معا ، كل منهما تحكى ، وتتنهد ، ثم تواجه اليوم بشجاعة ،
تقول سيدة التى لم تعرف شيئا من أمرها منذ طفولتها :

... لم أنجب ياست عائشة وهذا فى بلدنا عار ، تزوج على فرضيت ،
ثم أتى بها عندى فى الدار فرضيت ، ولما أنجبت غريمتى وطالبتنى أن أرعى
طفلا رضىت .

أما هو زوجى فقال لا أستطيع أن أطعم ثلاثا ، وعلى ذلك لم يرز
فطلقنى وتلقفنى بيت أبى والمرأة المطلقة (ثقيلة) حتى لو لم يكن معها
(عيال) .

تأملتها عائشة مليا وتذكرت أنه قد حان الوقت كي ترد بعض الدين
الذي تدين به لتلك العائلة الصغيرة : سيدة كانت لها أختا أكثر من
شقيقة ، كم داعبتها وسلتها ، وطيبت خاطرها ، وتوسطت لدى أبيها كي
بفندق عليها بعض الفطير والحلوى •

تقول عائشة مشيرة بأصبعها نحو عينيها الحلوتين :

فى هذه العين ماء ، وهذه العين زاد •

واحتضنتها وامتزجت رائحة الكولونيا برائحة الحلبة واسلم قلب
نفسه الى قلب آخر ييزه حنوا ورقة •

تتميز سيدة بخفة ظل ومرح ، وأحيانا المصائب تضفى على أصحابها
نوعا من المكابرة ثم الاستخفاف والتحدى ، تخطت سيدة كل مصائبها
وأحالت الجو الذى يحيط بالأسرة الصغيرة الى مرح وانسراح •

شاهدت عصر اليوم رجلا يرتدى الملابس البلدية ويتعمم بعمامة
أنيقة يستأذن فى الدخول ويستهل حديثه قائلا : يا ساتر ، ثم ينتحج
بطريقة كأنه يفتل شساربه • أحس بأن جو البيت المتواضع فيه أنفاس
الحريم المعطرة •

أعاد سعاله ، وتكتم سيدة ضحكة فى نفسها ثم قشعر اليه أن يجلس
(فى حجرة المسافرين) ، وحجرة المسافرين هى الصالون بلغة أهل سراى
فريد باشا ، المقعّد من القطيفة الحمراء الداكنة بلون الطربوش ، فى ذلك
العصر ، مطرزة (منها فيها) بورود دقيقة رقيقة تجد كل مقعد متجها اتجاهها
معينا فى وقار ، والصور لا يوجد منها سوى صور للمرحوم فى أول
شبابه وفى رجولته وفى طفولته ثم صورة واحدة مختلفة هى صورة
السيدة الجليلة أم حسين تتأملها سيدة ولا تملك نفسها من الابتسام
المشوب بالسخرية (حتى فى شبابك شائلة الدنيا على دماغك جتك الغم)

المقاول بدوره يتأمل الحجرة ، تهون عليه سيدة بقولها : الست
عائشة لن تتأخر عليك ، ستأتى حالا ، وبعد دقائق تدخل عائشة غلافها
الاسود يكاد يغطيها ولا يظهر من هذا الاسود الا وجه فى استدارة القمر
وبهائه وابتسامة حانية تسبقها قطر اعياء وحزنا ، يبهز المقاول لمرآها
وينحنى مسلما •

يقول بادئا الحديث : الجماعة جيرانكم حدثونى بشأنكم (وهو

يتعمد صيغة الجمع رافعا شأنها مستدركا أنها من النساء اللاتي يجب
عدم مخاطبتهن بصيغة المفرد (وأنا تحت أمركم •

تقول عائشة : شرف يا حاج (ولم يكن قد حج بعد) : أنا أملك
(كذا) وأريد بيتا من طابقين و ...

ويقاطعها مخرجاً : انه يكاد لا يكفي طابقاً واحداً •

فتقاطعه : كيف ؟ لقد استشرت محامياً ماهراً وهو الذي حدد لي
القيمة •

يمسك الما قول (المسبحة بين يديه وهو يكاد يمسحها) المحامي
ياسم هائم يفهم في القضايا ، لا في أعمال البناء (ثم يشير الى رأسه) لقد
شاب شعري وأنا أعمل في هذه المهنة •

ثم يحاول القيام من على كرسيه مرتبكاً بصسرة احتجاجية : والله
ياسم هناك كثيرون يستطيعون (الكلفة) و ...

وبإشارة من يدها تقول : لم يحدث الا الخير يا حاج (ويبدو أن
لكلمة الحساح فعل السحر) فسرعان ما استعاد جلسته وخاصة عندما
شاهد سيدة وهي واقفة أمامه بالصينية الفضية وعليها كوب زجاج مغلف
بكاسة من النحاس الأخضر الجميل مملوء بالكازوزة ، تستأنف عائشة
الحديث قائلة :

قلبي يحدثني بأنه ستكون بيننا معاملة طيبة الى مدى طويل وخاصة
أن المال مال يتامى •

يتألم الرجل ويدير رأسه في عدة اتجاهات ، وفي الحال تكمل
عائشة حديثها : لي رأي هو أن لو سمحت وتكرمت أن توافقني على هذا
الاقتراح فهو قطعاً لن يتم تنفيذه الا بمعاونتك وبعض تضحياتك •

اتخيل الطابق الاول بعد أن ينتهي منؤجره مفروشا وفي كل
شهر أسدد لك الدين •

وتتسع عينا الما قول فيسألها بأدب : أي دين ؟

عائشة : أنوي أن أبني طابقاً ثانياً كما قلت لك من قبل انه حلمي
ستتكفل أنت بالدفع ، أعني مصروفات البناء ، والسداد متى سيكون على
هيئة أقساط شهرية تحصل عليها من الإيجار ، هيه ما رأيك ؟ أما الفائدة
المادية فلك أن تحدد قيمتها بنفسك •

الرجل - بعد أن انعكست عليه أجواء البيت : كآبة ، حزن ، وأخيرا
كفاح امرأة لا سند لها الا مثابرتها - يجد نفسه يقول دون أن يدرك :
حاشا لله ياسيدتي لن آخذ مليما واحدا فان (الربا) حرام وأنا لى أولاد !

هى الاخرى لا تدرى ما الذى دفعها رهى (صاحبة الوقار) أن
تهزل ناحيته محاولة تقبيل يده !

فذا به يقوم ملسوعا من على كرسيه (يفتظ) حبات ميسحته مدعما:
أستغفر الله ، أستغفر الله •

المكان أرض فضاء ، ملأى بالعمال (البنائين) بعضهم يحمل (القفف
او المقاطف) على ظهره يرتدى (فى عز الحر) شيئا يشبه الفانلة وسروالا
اصبح لونهما يميل للرماد بعد أن كان يميل للبياض •

تجمع بين العمال اغان شعبية حماسية تحثهم على العمل والنشاط ،
وهناك فى ركن قصى تقبع السيدة عائشة بسوادها (ومظلتها) التى
تظلها • تجلس على كرسي خيزران وبجانبيها الماول الذى لفحته الشمس
وتصيب منه عرق العافية •

يقول لها هامسا : هاك ياسيدتي (المونة) التى تمزج بين طوب البناء
بعضه وبعض • تعمل كالاتى : المقادير واحد مونة واثنان من الرمل ،
ثم يشير بيده : ها هو ذا (الواد عبده) ينخل الخليط على شكل هرمى ،
ها أنت هذه ترين الهرم يعلو ، ويعلو ويعلو غدا ان شاء الله يكون معدا
للاستعمال آه على فكرة ! يجب رشه بالماء اليرم ولا يمس (بأذنه تعالى)
الا فى الصباح •

تتأمل عائشة عيدان الحديد النابتة فى أول البناء وتههم (فى
سرها) : اللهم اجعله بيتا طيبا مباركا يحمينى وولدى •

المنظر يتكرر ، عملية البناء تتجدد ، الطابق الاول يبسو جنينا ،
البهجة والتفاؤل ترسم على محيا عائشة :

محمد ومها هناك فى الشقة المتواضعة ترعاها سيدة الوفية بعد
أشهر قليلة تتقدم حياة الجنين ، ترى عائشة تكلف المقاول شراء الاخشاب
اللازمة • تقسول فى حديثها : اسأل لى على الاسعار لا تقدم على عملية
الشراء الا بعد أن أدبر أمورى •

تحاول من ناحية أخرى أن توسط النجار فى العملية نفسها حتى
تحصل على السعر المناسب .

عندما ترجع الى عشها تحتضن صغيرها .. تكتم دموعها .. تنأملها ،
الولد لا تفارقه ابتسامته الملائكية ، البنت لا تشبع من القوس فى أعماق
ملاحظها ، ثم تتيه فى عالم غير مرئى تنأجى حبيبها الذى لن يعود وتسأله:
أعدك اننى سأواصل كفاحى ، أنت أستاذى ، مرشدى ، معلمى ، أبو ولدى:
محمد يبعث اليك بقبلاته ، أما مها فهى تبغك فنامها .. الأيام تنبئها بانها
ستكتسح عالم المرأة والرجل معا !

أما أنا يا حبيبى فلم يبق منى الا عقل يسيطر على كل شىء وجسم
أضناه التعب يعيش فى زهد مستحب .

لقد ترفقت بى العناية الالهية فبعثت لى رفقة حنونا لازمتنى طفولتى
الحالكة فى شبابى ، ثم فارقتنى لأنك ملأتنى مما أشبعتنى وفاض حتى
أصبحت أترود منه حتى الآن .

فى المساء عندما يلامس جسمها الحار فراشها البارد تتلفت بمنة
ويسره ، وفجأة تقوم باضطراب تجس جبهة محمد ويد مها الطرية الدقيقة
وعندما تتأكد من حرارتهما الطبيعية .. تنام .

معظم أحلامها .. البيت المكون من طابقين يعلو ، يعلو حتى يكاد
يناطح السحاب .

محمد يسكنها من ساقبها يحتضنها ، يقبل ركبتيها ، مها ترنو
اليها بمكر (طعم) .

حماتها تراها دائما فى حجم الطفلة ، مشعنة الشعر تضحك ببلاهة
وتشير اليها قائلة : يا ذات الرشم الاخضر سمينهاار بيتك لانه من الطوب
الاحمر ، هذان الولدان من نصيبنا فى سراينا .. عليك اللعنة .

أما حسين فهو دائما فى أردية بلون الفل تسبقه ابتسامته المشعة
يضح يده على رأسها ويهمس اليها . سبرى يا عائشة الحبيبة فى طريقك ،
انت قوية .. لقد علمتك القوة ولقنتك أسرارها .. أديرى ظهرك للحساد .

وكثيرا ما تتغير صورة حسين وتحتلها صورة محمد فتراه رجلا
مكتملا .

وكثيرا أيضا ما تسأل سيدة عن تفسير أحلامها .

فتضحك الشابة الطيبة وتقول لها مازحة : انك (من يومك ٠٠ منذ أن كنت طفلة لا تحكين الأغنية) •

ثم تستأنف حديثها جادة : كيف حال البناء وانقاول الطيب ؟
تبتسم عائشة وتذكر أنها قريبا ستصبح مالكة •

ثم تتنبه للسؤال فتزد : بدأنا فى (تبييض الجدران) ولقد نبهنى المقاول فى حالة تغيبه أن أراعى من اكثر كمية الشبة والملح حتى تضمن تثبيت البياض •

سيدة وهى تقترش الارض وتضم شعرها فى منديل أبيض تتساقط منه صغيراتان نصفهما السفلى مجسود بشعر مستعار بنى قائم تقول وغمازاتها تزدادان غورا : ياست عائشة (الله يدك العافية) لقد ألمت بأسرار البناء •

ترد عائشة جادة : ليست كلها •

تمصمص سيدة بشفتيها : والله عال • دعى المقاول ياكل عيشا •

تمضى بضعة اشهر طويلة ، ينمو محمد ، ومهما •• يزداد هزال عائشة ، وترسم دوائر سوداء تحت عينيها كما يتضح شحوبها •

تفكر فى أن الطابق الاول لم يبق على انتبائه الا القليل وهى قد قررت أن تؤجره مؤثما ، تسأل سيدة قائلة : عندى بعض المجوهرات التى تركها لى المرحوم حسين أريد أن أستبدل بها قطع الاناث ما رايك ؟

يزداد اتساع عيني سيدة ثم تخطب صدرها بيدها قائلة : ياندامتى ياستى هل نسيت أن لك ابنة ؟

عائشة بسداجة : ماذا تعنين ؟

ترد سيدة بلهجة الأم الناصحة : المرأة بلون جواهر لا تساوى شيئا ! عندنا مثلا فى الفلاحين الشرط الاول للعروس أن تتحل بالذهب •

تهز عائشة رأسها هزات متوالية وتبتسم ابتسامتها المتزنة وتهممهم : يبدو أننى من عالم آخر !

تم عملية البيع ، كان سيدة لم تكن الا كما يجب أن تكون الطرف السلبي ، تشتري عائشة أثاثا يصح أن يطلق عليه (فاخر) (عليه القيمة)

ثم تجتمع بالمقاول بالشقة وتساله : ما رأيك ؟ هل تذكر حديثي ؟ بشأن الطابق الثاني .

المقاول يفنط مسبحته بتؤدة : يخيل لي أن أبدا أنا بشمرك ، مشروعك رائع لولا .. لولا ..

ترد بلباقة : نعم ، وأعترف ، اعترف بأنه لولاك لضاع كل شيء .
المقاول : ذهني بعيد عن هذا ، أريد أن أقول : كم أتمنى أن يوفقك الله في مستأجرين طيبين يحافظون على الاثاث الذي من أجله بعث الكثير !
تهتم بحديثه الذي فاجأها به : من أدراك ؟

يقرب رأسه منها قائلا : هناك طريقتان لجلب المال واعتقد انك تمثلي الطريق العفيف .

ترد : كل شيء يهون في سبيل الخير ، هيه يا حاج ، لم ترد علي بعد ؟
المقاول : كيف أرد وأنت الأمرة الناهية ؟

المؤجرون .. رجل أعمال من الشام وزوجه لم ينصفهما الزمن في انجاب أبناء علي خلق حميد ! بعد اتفاقات نتخذ أحدها بواذر الثورة ثم تهدأ فتتحول الى مساومة ، كل طرف منهما يدعى الاخفاق .. الاتفاق الأخير هو مستون جنيها شهريا .

العام حوالي ١٩٢٧ ، محمد التحق بروضة أطفال الحي ، كان هادئا حالما رقيقا كأبيه .. تكاد عينك لا ترى سواء بين أترابه .

كثيرا ما ذهبت أمه الى المدرسة لتتعرف أحواله فتقول لها الناظرة : انه ذكي كما يبدو نبيلاً لولا ...

تستحثها أمه فتسألها : لولا ماذا ياسيديتي ؟ طمئيني أنا أمه وإبوه !
تتاملها الناظرة بحنو وتقول : يبدو ضعيفا علي أية حال .
(حكيمة المدرسة) فحصته و ...

عائشة بلهفة جتونية : ماذا وجنت ؟ ماذا أصابه أخير هو ؟
الناظرة : يالك من أم ! اطمئني كل ما فيه سليم ، لعلك لاتخرجينه كثيرا في الهواء والشمس ، هل ليبتكم حقيقة ؟

وتسرح عائشة بأفكارها وتقول : سيكون ، سيكون ، هناك لبيتنا الجديد .

الشيء الذى تجبه تستبطنه كل شيء يطوف به .. لقاء الحبيب .. السفر الى مكان له ذكريات .. كل ذلك تطول دقائقه فتتحول الى ساعات ، حتى الطابق الثانى فى عمر عائشة استغرق أكثر من العام مع أنه تم بناؤه فى مدة أقل من الطابق الاول .

نراها تجمع حاجاتها وتنتقل مع ولديها ورفيقتها سيدة الى الطابق الثانى الذى شاركت فى بنائه بدموعها وعرقها ، دعواتها ، صمودها بمظلتها يوميا فى أثناء بنائه حتى اكتمل ، كانت تقول دائما : لى ثلاثه أبناء أحد الثلاثة عملاق شامخ لا يشيخ ! .. متى ترى ولديها فى بعض علوه؟ لم يبق على سداد الدين الا القليل ثم تصبح مالكة حقيقية .

ادخلت الكهربا فى الطابق الثانى واشترت ثلاثة متوسطة ولو انها لم تستطع الاستغناء كل الاستغناء عن القليل القناوى ، الستر تفننت فى تطريزها وبنوقها الرقيق صنعت من تموجاتها ما يكاد يشبه جنات الاساطير .

تذكرت أقوال الحاجة حسنية ونصائحها الماضية : تلقنى أسرار التطريز والحياكة والطهو ، نعم .. الظروف اقتضت منها أن تهب كل مواهبها .

لم يعد هناك ما يستحق التسجيل طوال الاعوام التالية سوى أن عائشة قد سددت كل دينها ، والمستاجر ين تفرروا وتبدلوا ، أما تحصيل الايجار فهو لم يدخل جيب المكاول لكنه انتقل الى دفاتر اليوسطة .

سيدة طلبها عرسان كثيرون ، رفضت ، ربما لأنهم ليسوا أفضل من الاول وربما بسبب وفاتها لقرينة صباها .

عائشة ازداد جمالها بالرغم من ارهاقها وحزنها الدفين الذى أصبح من مميزات صفاتها ، وعلى ذلك فان (محمد) الطفل اليافع قد جاوز الآن الثانية عشرة من عمره وهما فى السنة العاشرة من عمرها .

تقرير المدرسة : محمد ذكى مرهف الحس تبرز مواهبه أكثر فى الموسيقى والرسم .

مها : لعوب متكاسلة بالرغم من ذكائها المفرط .. تقديراتها متوسطة
الا ان نبوغها تجلى في الالعب الرياضية .

ثم سرعان ، سرعان ما تطول قامة محمد وكذا مها بعد بضع سنوات
آخر .. في أثنائها كان محمد يسأل أمه عن والده ! وبالرغم من تضحياتها
واعتصار نفسها فهو لا يقدر على كبح جماح نفسه من أنه يحن الى أب الى
والد يلقنه دقائق دنيا الرجال الا أنه استطاع أن يكون زوايا شخصية
أبيه من خلال كتبه التي في المكتبة ، ومن صوره طوال مراحل حياته ،
ومن ملابسه وأدواته ثم والأهم .. من سرد أمه بكيانها الدافئ الحنون .

ليس له خال - كما أطلعت أمه . اما أهل أبيه ، أهل أبيه - فكيف
غاب ذلك عن باله ؟

هيه ! فليسأل أمه في ذلك . قال لها : ترى ماسبب التغطية التي
بيننا وبين آل أبي ؟

ويبتسم الوجه الابيض السقيم وترد عائشة قائلة : ليست هي
بالقطيعة يابني ، انما الايام و ...

يقاطعها محمد بحماس: استطعت أن أستخلص من أحاديثك المتقطعة
عنهم أننا في واد وهم في واد ! .. عائشة (وقد رجعت بها الذكرى الى
الوراء) . أعرف يا محمد كيف نشأت (أنا) ؟

يتلملح الابن ويعتوره قلق .. يتقلب عليه حب الاستطلاع فيهمس
لها : لقد كافحت كثيرا يا أمي .

لكن التفاصيل لا أكاد أعرفها .

تغضى عائشة نصف اغضاء وتولد ابتسامة جديدة على محياها
فتقول وكأنها تناجي الدنيا كلها : هذه التفاصيل التي تحدثني عنها
بسذاجتك الحبيبة فيها كل الاسرار ! محمد .. ثم تقترب منه وكأنه مازال
الوليد الذي توسد أحضانها ودفن رأسه الصغير الحبيب الى صدرها .. قلبي
الآن مفتوح على مصراعه .. ماذا ستصنع بي يا حبيبتي لو عرفت ؟ لو عرفت
انني كنت أحصل على لقمة عيش وأنا أعمل !

يطمئننا الحبيب ويرفع يده يربت بها على ذراعها قائلا : ان من
لا يعمل لا يساوي شيئا ، أتظنين هؤلاء ، هؤلاء الذين يتربعون على الشملت
أفرادا لهم كيان ؟ بل هم تنابلة السلطان !

تتهدد عائشة وتزفر زفرة حارة تكاد ترى دخانها ثم تستأنف حديثها الذى أخذ يتدفق : كنت أعمل خادمة يابنى ، كنت أخدم قوما لا يقلون عن منزلة أهل أبيك ، لقد سألتنى أختك أكثر من مرة : لماذا ترى هذا الوشم الاخضر الذى يقسم جبتهى ؟ لم أستطع أن أرد عليها ، أتعرف لماذا ؟ لأنها لن تفهمنى ، أما أنت فكأننى أحدث أباك أو أحدث ..

وتسقط منها دمعتان تظهران على حجرها ، ورويدا رويدا تزحف يد الابن تتحسس أصابعها فى حنان دافئ مشارك ، ثم يتحننى ليقبل أناملها ويهمس : أحترم تلك اليد التى أزالته أقدار الآخرين .
تمتد يدها الاخرى لتعبت فى ذؤابة شعر الصبى .

لكن فى بطنه تتخلل الشعيرات ميساه دموعها الحارقة لتروى من جديد .

مها الصبية الحلوة المشوقة الرائعة الحسن لا تمل المكوث أمام المرأة ، لكنها لا تكتفى فى تهوى التصوير ، تصوير هذه الطلعة التى تتجدد كل يوم بحسن جديد تملك عشرات الصور الفوتوغرافية فى أوضاع مختلفة ، وقد أهدت منها الكثير للصديقات بعضهن يتنهّد حسرة ، وبعضهن إعجابا .

تقفز هنا وهناك ، وتنادى أمها قائلة : ماما ، ماما ، أريد أن أسألك سوّالا :

ثم تشير الى مجلة مصورة وتفتح أوراقها وتتخير صفحة ثم تضع أصبعها تحت صورة معينة وتقول : أقریب أبى هذا ؟ تضع عائشة عوينانها وتنعم النظر قائلة بهمس : غير معقول !! تضحك معها ضحكتها ذات الجرس وتقول : لقد ازداد اللفز غموضا ! ماذا تعنين يا أمى ؟

عائشة وكأنها تهمس لنفسها : انه ، انه عمك !

تصفق مها بيديها وتقول : انه يبدو ثريا من طبقة النوات الا ترىنه يا أمى ينزل من على سلم الطائرة وهو آت من أوروبا ؟ هل يمكننى يا أمى أن أسافر بالطائرة ؟ آه ! هناك رحلة ستنظمها المدرسة للموهوبات فى الرياضة (ثم تزعم شفقتها المكورتين الحلوتين وتبسطها وتشير الى صدرها بكبرياء ، فى يوم ما ساكون صاحبة شان آه ! لتند نسيت لماذا لا نزورهم يا أمى ؟

تفكر عائشة في الحديث الذي دار بينها وبين ابنتها من مدة قريبة
وانها أطلعته على خبايا حياتها ، وما يأخذه البعض عليها من أنها ريفية
فيجب ألا تنسى نشأتها وتطمع في مستوى أرقى .

ترى لو كانت تنتمى لهذه الطبقة التي ينعتونها بالذوات فهل كان
في استطاعتها أن تبني بيتا يأويها هي وولديها ليدر عليهم مالا حلالا مدى
الحياة ؟ وهل لو كانت منهم كانت تزود بالاطلاع والقراءة والتحصيل
لتتحدث بأكثر من لغة وتطلع على معلومات ؟ فبعض (رجال طبقتهم)
لا يعرفونها ولا نقول سبقتهم إليها ، وأخيرا تنبه لسؤال ابنتها فتقول
برزانة : ماذا تقترحين يا مها أن نبدا نحن بالسؤال ؟

تزوم مها قليلا ثم تقول : هل يعرف عمي أن له ولدى أخ ؟
تبتسم عائشة ابتسامة لها معناها وتقول : لعله لا يعرف أن أخاه
زوج !

ثم ينطلق السؤال الذي انتظرته عائشة سنوات وكم أخافها :
لو فرض أن هذا حق فلماذا لم يطلعوه ؟

وترنو عائشة الى ابنتها الذي كان يجلس في الركن وتبتسم ويبدو
أن محمدا قد فهم الكثير لأنه أجاب أخته : ألا تعلمين أننا من طبقة تختلف
تمام الاختلاف عن طبقتهم ؟

وبتحد يشموه التعجب يسأل : كيف يكرن هذا ؟ اليس أبى أخا
هذا الثرى الوسيم ؟ ثم يشير بأصبعه الى الصورة .

ويبدو محمد عصيبا وهو يقول : ألم تسمعى أن هناك أخوين أحدهما
فقير والآخر غنى ، ثم شيئا آخر : أمى ؟
مها باضطراب : مالها ؟

محمد محتدا وكأنه يدافع عن شيء خفى : ليست من طبقتهم انها من
الريف ومن عائلة متواضعة .

مها وكأنها لا تدرى ماذا تقول : لماذا يا أمى ؟

هنا ترد عائشة : ماذا تعنين ؟

مها بسداجة تحمل في طياتها الكثير : مالذى جمع بينك وبين أبى
وانتما من طبقتين مختلفتين ؟

ترنو عائشة الى محمد (ثم تخرج من الحجرة) •

محمد يضع ساقا على ساق وينعم النظر في وجه أخته ثم يقول لها:
تعالى هنا بجانبى ، اسمعنى ، أمى أو أمنا أغلى مالنا فى الوجود (أرجوك
لا تتأففى) واسمعينى للنهاية • أقول اسمعينى ، لاننى أريد أن أطلعك
على دقائق حياتها، يجب أن تعرفيها سواء اليوم أو غدا، هذا الثوب الذى
تردينه وتغيظين به صديقك من عرق أمى من صنعها ، لولاها فربما كان
ماوانا الرصيف !

انها صاحبة فضل علينا •

مها : كل أم تفعل ما فعلته ،

محمد : وهو يمد عنقه وتبرق عيناه : لا •• معظمهن •• اما أن تهمل
أطفالها أو تتزوج بعد أبيهم وخاصة إذا تاملت فى سن مبكرة وكانت
ذات جمال خلّاب •

مها (وكأنما قد سئمت الحديث الذى اتخذ شكلا جادا) : كنت
أفضل أن تكون من طبقة أبى •

ثم استدارت ناحية أخيها وهى تقول محذرة : أرجو ألا تسمعنى •

يقول محمد : اما أنك غبية أو أنانية أو ربما الاثنتان معا ، أمك
تفهمك جدا بطريقة لاتصورينها •• أو ليست أمك ؟

وقت الظهيرة ترجع مها من مدرستها وترمى بحقيبتها على أول مقعد
يصادفها فى صالة الشقة ثم تزيج خصلة من شعرها المتوج الذهبى من
على جبهتها لتمسح بعض حبات العرق وترتمى على مقعد آخر مريح وتضطجع
متنهدة ثم تصرخ بأعلى صوتها : دادة سيده ، دادة سيده •

تهزل سيده كالمجنونة وتكاد تتعثر فى طرف السجادة تضحك مها
بصوت عال وتقول : لماذا أنت بلهاه يادادة ؟

تنهد سيده وتقول : الله يسامحك ، المهم لماذا تناديننى وكان البيت
حريقا ؟

مها : هاتى لى زجاجة كازوزة من تحت •

سيده ناصحة : وجبة الغذاء التى لم تتناولها حتى الآن أهم وافيد •

تصرخ ثانية : قلت لك هاتى الكازوزة !

سيدة وهى مدبرة : كازوزة ، كازوزة !

يأتى محمد صاحبها : ما هذا الصراخ يا بنت ؟ انك قليلة الادب والحياء والحقيقة ان الخطأ الوحيد الذى وقعت فيه أمى أنها دلتك .

مها (وهى تخرج لسانها) لماذا أنت غيران ؟

ينظر اليها شزرا : مغفلة .

تقول باتزان : عندى لك مفاجأة .

محمد :

مها : انك لاتليق وأنت تتخذ صورة الرجل الرزين ، على أبة حال لولا اخلاقى العالية ما حدثتك بهذا : لقد اتصلت تليفونيا بعمتى .

يستدير محمد ناحيتها قائلا : كيف تجرات ؟

هى بصفاقة : أليست عمتى ؟

محمد : أو لم تحسى بها الا الآن فقط ؟ اين كنت طوال السنين الماضية .

مها : كنت طفلة صغيرة أما الآن فقد نموت وصرت « عروسة » .

محمد : يالك من سبحة ! ثم لماذا لم تستاذنى أمى ؟

مها : لأنها كانت سترفض قطعاً ، ما هذا الذكاء ؟

محمد : وكأنه لايبدى اهتماما : ما الحديث الذى دار بينكما ؟

مها : (وقد أحست بأنها انتصرت فى هذه الجولة) أو تريد أن تعرف ؟

محمد :

مها : حسنا ، لقد فرحت بى جدا وناشسدتنى أن أزورها فهى فى شدة الشوق لرؤيتى ، لأنها لم تشاهدنى منذ أن كنت طفلة .

محمد : ساخرا : هية ! شدة الشوق ! ثم (حدد اليها البصر) أو لم تسألك عن أمى ؟

مها : لست أذكر تماما ، لكنها سألتنى عنك .

محمد : فيها الخير والله ، وكيف حال جدتي ؟

مها : قالت انها متوكة قليلا .

محمد آه .. متوكة ! مسكينة ! لعلها الشيخوخة .. والآن ما الذي تنتوينه ؟

مها : سآزورهم طيبا ، لقد وعدت عمتي ؟

محمد : أخطرئ أمي فربما كان لها رأى آخر .

مها : مهما كان رأيها فسآذهب .

محمد : وهو يلوى يدها : لن تذهبي الا بموافقتها ، أففهمين ؟

لقد وضحت الآن شخصية كل من الولد والبنت : محمد ورث النبيل ، الاصاله ، الايثار والتضحية عن أمه وأبيه على التوالي ، مها بحسنها الرائع تكاد تكون ابنة شبيهة لعمتها بخيالاتها وشغفها بالمظاهر والسطحية مع أن نشأتها وبيئتها كانتا عكس ذلك : فمنذ أن شاهدت صورة عمها بوسامته وحسن بزته دخل في روعها أنها يجب أن تكون منهم من هؤلاء القرم لا ينقصها شيء فهي أنانية جميلة بكبرياء تجيد التحدث باكثر من لغة أجنبية فلماذا لا تقامر وهي في مطلع صباحها لتتصل بأهل أبيها الذين تحبهم وتفاخر بانتسابها اليهم ؟

أما أمها الحزينة المغلفة دائما بأرديتها القاتمة وقللمها وأوراقها التي لاتفارقها فهي دائما اما أن تقوم بعملية ضرب أو طرح أو جمع لتحصل منها في النهاية الى تنهيدة ارتياح أو يأس !

محمد (الأبله) الذي يعيش في دنيا لا تعرفها يتجاهل صديقاتها المليحات ولا ينبهر بالصور الخليعة للفنانات المشهورات بالأغراء ، فهو لن يفهمها ولن تفهمه لقد حانت الفرصة فلم لاتنتهزها ؟

هاهي ذئ تنادئ على تاكسى بعد أن ارتلت أجمل ما عندها من اثواب وأطلقت شعرها الذهبي المتعوج على أكتافها الا أنه استرسل حتى كاد يقطئ ظهرها واستأذنت أمها الحزينة فتعطرت من أحسن عطورها .

وأخيرا ها هو ذا البيت ، البيت ! هيه انها سراى ! هيه ! قيل لها : انها ولدت فيها ليتها ترعرعت فيها ، الجرس يدق ، ويظهر سفيرجى حالك السواد ناصع بياض الثياب ما أجمله ! أسنانه البيضاء تحييها ، الصالون يحتويها ، ما أجمل تحفه ! ذهبي ! خشب أثائه المتعوج المنحوت الألوان المتباينة ! الله ! ها هي ذئ صورة أبيها . وصورتها مع أخيها محمد وهما

فى وقت الطفولة ، أمها لا اثر لها بينهم كما توقعت ، تتنبه فجأة الى خطوات رقيقة رشيقة تخطوها امرأة فى عمر أمها تبالغ فى زينتها شعرها أصفر ذهبى لامع ليست فيه شعرة واحدة بيضاء !

غريبة ! ولكن لماذا غريبة ؟ ربما الغرابة عند أمها فقد ازداد شبيها وخاصة السنوات الاخيرة أما العطر فيضرب عطرها الذى استعارته من أمها على عينه ، ما هى ذى تهب واقفة وابتسامة واسعة تملأ وجهها ثم تحتضن عمها وتقول : أهلا طانط . ترنو اليها دلال هانم وفى الحال ترجع بها الذاكرة الى أيام صباها الا أن هذه الصبية تبرزها نضارة .

تسألها برفق : كيف حالكم ؟

مها : عال يا طانط ، ولنا بيت نملكه .

نبتسم دلال ابتسامة خبيثة وتهمس .. كان أبوك رجلا حكيما .

فترد سريعا : بل أمى يا طانط ، لقد صنعت المعجزات ، تعلمين أن أبى لم يترك شيئا يذكر وبدل أن تعقب دلال تسألها :

كيف حال محمد ؟

مها : ماما تقول : انه نسخة من أبى .

دلال : كأنما تحدث نفسها : أحسست بهذا وخاصة عندما شاهدتك بمفردك .

يقطع الحديث دخول رجل وسيم عرفته مها فى الحال ، انه العم العزيز أو الطعم الذى جذبها الى هذه السراى يمد كلتا يديه اليها بل انها تكاد ترى شيئا يلمع فى عينيه لا ينسكب ، ابتسامتها تزداد اتساعا يهمس لها كهمس الورد : انت ابنة حسين ؟ حسين الغالى ، كم عز على فراقه ! لقد كان نعم الأخ .

مها : متشجمة : شكرا ياعمى .

يسألها متلطفا . كيف حال أخيك ؟ ولماذا لم يصحبك ؟

ثم يتنبه ويستدير ناحية أخته فيسألها : الواقع أن الخطوة كان يجب أن نبدأ بها نحن .

مها : بسداجة : تصور ياعمى : ماما قالت لى : ان بابا لم يكن يتحدث عنك الا قليلا حتى انها نسيت بأن لنا عما .

العم : معها حق .. كل الحق، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، لقد سافرت يا ابنتي الى الخارج للترفيه (ثم يضحك بسخرية) فحلا لى ان امضى بنية عمري هناك الا ان الظروف لم تساعدني ، وهأنذا اغير مجرى حياتي للمرة الثانية ومن يدري ما سيأتى به الغد ؟

مها ، بانطلاق : ما دمت معنا وبين اهلك فلن نشعرك بىأس أبدا .

يتناول يدها بين يديه بحنان : شكرا .. شكرا يا ابنتى .

تسال مها : كيف حال جدتى ؟

دلال بعظمة : فى خير حال .

مها : كيف ذلك ؟ لقد كانت متوعدة كما اخبرتني منذ أيام ، الحمد لله انها تحسنت . اذن لماذا لم تأت لتسلم على ؟

وفجأة تقوم من على كرسيها وتنظر الى عمها الذى يرمقها بنظرة مشجعة وياخذ بيدها مع ان (دلال) حذرتة بنظرة خفية فلم يسمه الا هز كتفيه .

يصعدان درجات سلم رخامى ويدخلان حجرة لتشاهد مها الجدة جالسة امام المرأة تتجمل .

تضحك بصوت حلو وتقول : أهلا (جران) ماما .

تباغت المرأة فتقول دون أن تعي : ظننتهم معك يا حلوة .. وتفهم مها كل شئ .

تمضى بضعة أيام ، ثم تشاهد مها وهى تروح وتجيء فى الشقة تنظم من وضع الأثاث وتجمل الأركان بالورود المزروعة بالحديقة .

يقرع الجرس ، فتتهول مرحبة وتفتح ذراعيها لتستقبل عمها ياخذها بين أحضانها .. ولما يفلتها يشاهد شابا يافعا حلو التقاطيع يتبسم ابتسامة هادئة ويمد يده بوقار قائلا : أهلا .. شرفت بيتنا .

بعد دقائق تكتمل واجبات الضيافة .. صينية فضية عليها اكواب مملوءة بالشربات أما فناجين القهوة البيتي ذات النكهة المميزة فقد دخلت قبلها . ربة الدار ما زالت الألوان القاتمة تحتوبها وتميزها ، وعيناهما النجلوان الواسعتان تسبران غور كل من تراه وخاصة هذا الزائر ..

ريحه الحبيب الغائب الذى لا يعود .. تبسم ابتسامة ناحية ترعش قسما
وجها ويزداد اتساع فتحتى أنفها الدقيق، فتسلم .. ويسلم ، يرفع اليها
وجها صبوحا شبيها بوجه باش التهمة التراب ، يسألها بصوت خجل :
لعلكم بخير ! ودون أن تدرى تتلفت حولها ثم تجيب : ما رأيك أنت يا أخى ؟
يفضى ويزداد اضطرابه ، يسمع دقات قلبه تعوى .. لم يتحمل من قبل
مسئولية أى شخص وها هى ذى أمامه امرأة تعلت الثلاثين فى أوج أنوثتها
ورائع فضجها .. ثكلى تتحمل آلام عزلتها ووحدتها وترملها !

ما الذى يشده نحوها : صلة القرابة أم ظروف الحزن والسكابة ؟ ثم
تأملها ثانية وكأنه تجاهل ما حولها .. تخيلها فى أردية زاهية وتمشيطة
شعر حديثة . وإذا به يشاهد صورة أخته دلال .. سرعان ما يغير ما بذهنه ،
ويرتد الى التى أمامه ثم يتنبه الى سؤالها .. وهو اجابة لسؤاله : انها
تناديه بيا أخى .. لا .. لست بأخيك فانت لست بدلال ، وأنا غير جدير
بالأخوة ، وسرعان ما يجيبها : يا هانم أحببت ولديك اللذين هما كابنائى
.. عدينى من اليوم بمثابة ...

عائشة : كم مضى على فراقكما أنت والمرحوم ؟

حسن : سنوات طويلة كنا نبدد وحشتها بالمراسلات ، وإذا بى (أنا
الكلول) أبطىء فى الكتابة حتى عدت تقريبا أخبارى ، مرت على تجارب
مريرة حجت ببنى وبين من أحببتهم .. أما صدمة فقد فقدت جرت على الكثير ،
أريد أن أستغفر .. فهل تتكرمين على ولا تحرمينى زيارتكم ؟

عائشة : البيت بيتك .. ومحمد ومها طوع أمرك .

يجلس محمد فى ركن الصالة يفرك يديه بعصبية ثم يسأل أمه : ما
رأيك . فى عمى وعمتى ؟

تجيبه بابتسامة واسعة : ماذا تعنى يا حبيبى ؟

عبد بقلق : هؤلاء الناس .. أحس بأننا لسنا منهم أرجوك افهمينى ..
عمتى نموذج يقززنى .. شاهدتها أكثر من مرة فى الخارج ، عمى أحسنهم
تقريبا لولا ...

عائشة باهتمام : لولا ماذا ؟

محمد : ليس هو بالرجل الذى أتمنى أن أكونه ! انه يرضى بالمقسوم
تماما كنساء زمانكم اللائى يمثلن الحريم ، رفته وتهذيبه يضيغان عليه الكثير
من .. لا أكاد أقدر على البوح !

تضحك أمه ضحكة عالية ثم تستنحه : هيه هات ما عندك يا محمد !

محمد : يخيل لي أنه يتمتع بسبعين في المائة من الأثوة !

عائشة : يانهارك أسود !

محمد (جادا) : اسمعي يأمي ، في نفسي ، في كياني شيء بل أشياء تريد أن تنطلق ، شعبنا يعيش كالدواب ، أنت مثلا : (افتحي صدرك لي ولا تفضيبي) : لماذا تحاولين إخفاء وشمك وكأنك موصومة ؟ لأنك من الريف من الأرض الطيبة ؟ : الفلاحون (قبل ثورة ١٩٥٢) يعزقون ويبذلون ويعرضون والآخرون يحصدون (على الجاهز) ثم يلوون أعناقهم متقززين من الأيدي الخشنة التي نبشت التراب وصفته من أدرانته حتى يحصل هؤلاء على التبر ! والنتيجة ، ما النتيجة ؟ هذه دادة سيده تنهكها الأمراض أولها البلهارسيا التي تحيلها الى جثة صفراء متحركة.

أريد أن أقول : انني مازوم .. حائق ، أريد أن أسوي بين هؤلاء وهؤلاء . عائشة باستخفاف : أنت ؟

محمد بحماس : نعم أنا ، أنا وغيري ، من جيلنا ، مها أختي أحيانا تكون وقحة لكنها لاتجبن عن ابداء رأيها .

عائشة : اسمح يا محمد ، نحن شعب طيب مكافح .

محمد : مكافح ؟

عائشة : نعم ، لقد عاصرت ثورة سنة ١٩١٩ اتعلم ؟ حينما كنت هناك في سراي فريد باشا ، كانت تجيء سيده أنيقة وتحدث مع سيده الدار وتحدد معها ميعادا . لتسير النساء مواكب ، مواكب ، كنا نرتدي (الحبرة السوداء) والبرقع الأبيض ثم نحمل الاعلام وتظوف جموعنا بالشوارع هاتفات «بحيا للوطن» حتى نصل الى بيت الزعيم سعد زغلول، فيظل علينا من الشرقة الفسيحة وجه لسيده سمحة القسمات تبادلنا التحية وكلمات الشكر ، أعترف من هي ؟ انها أم المصريين ، ان أمك الآن التي تحدثك كان لها شرف التطلع الى هذه السيده الجليلة ، بل لقد حييتها بيدي هذه التي لامست يدها .

وتأخذها حرارة السرد فيتدفق حديثها وتقول : مرة حجنا الانجليز ونحن هناك عند بيت سعد زغلول ، افترشنا الأرض أو بتعبير أدق الأرصفة حتى غابت الشمس ! أذكر في مرة من مرات ذهابنا الى بيت أم المصريين ! أننا كنا نوقع بأسمائنا واللاتي لايعرفن منا السكتابة كن يبصمن في

أوراق تبعث بالبريد الى انجلترا بلد اعدائنا المختصين للمناداة بالمطالب الوطنية التي أولها .. الجلاء .

محمد وهو شبه مخدر : لماذا لم تطلعيني من قبل ؟ ماذا أقول عنك يا أمي ؟ ماذا أقول ؟

عائشة : كلنا يا محمد في داخلنا رغبات مستعرة ، المثقفون منا وأنصاف المثقفين حتى الجهلاء نريد التحرر والاستقلال تصور (ولا أقول لك بلاش)

محمد : وحياة النبي .. احكي .

عائشة : هل تتخيل أن الفنانة او بالاحرى (العوالم) الثلاثي كن يقمن في شارع محمد على كن يخرجن في عربات حنطور هاتفات (بطريقتهم الخاصة) يطالبن بالاستقلال .

محمد : طريقتهم الخاصة ؟ كيف ؟

عائشة بمرح : كن ينشدن بأعلى حناجرهن (والصاجات) ارجوك اننى لاهزل .. أريد أن أقول كل طائفة .. بطريقتها .. بلفتها تعبر عن رغبتها في الخلاص ولا تظن أن هؤلاء الفنانة كن يثرن الضحك أو السخرية، بل على العكس فانهن يشرن بطريق خفى أن لهن جوانبهن النقية المخلصة التي لا ترضى بالعبودية .

أستطيع أن أقول اننى كنت في أيامها من عداد انصاف المثقفات لكننى كنت أكره جدا الانجليز وأشبه أى شخص مقتضب بهم حتى اننى (ثم رجعت بها الذكرى الى عادل الفظ الفليظ) حتى اننى عبرت عن مقتى لأحد الاشخاص بأن كرهى له بلغ حدا كبيرا كاد يتجاوز بغضى للانجليز .

محمد : لكن .. الى متى هذا الذل ؟

عائشة وفي صوتها رنة الامل : حتى تتفاقم درجة السخونة وتبلغ حد الغليان ، وهنا لابد أن يحدث الانفجار .

محمد (وقد انتقل الى ناحية أخرى في حديثه) عمى ، هل نشجمه على زيارتنا ؟ ما رأيك أنت ؟

عائشة بحنان : ما شعورك نحوه ؟

محمد : مشاعر غريبة متباينة : صلة الدم لانستطيع أن ننكرها ، لكن نظراته لم تعجبني .

عائشة (وقد أصيبت بغباء حاد لأول مرة) ماذا تعنى ؟

محمد وهو يقوم من على كرسيه : لا شيء ، مشاعر جياشة تجتاحنى
تماما مثل المشاعر التى تغمرنى من ناحية بلدى هل فهمت شيئا ؟

عائشة : أبدا يا بنى

محمد : أحسن .

يطرق بابهم فى يوم ما .. انه عريس لدادة سيده ، تأخر أكثر من
عشر سنوات لكنه النصيب كما تقول العروسة .

تعلق بها على ذلك متهمكة وهى تهمس لأمها ، والله عال ! بعد ما
شاب ودوه الكتاب ! لقد أصبحت دادة « جلد على عظم » .

تنهد عائشة وهى تقول : وماله يا بنى من ناحيتى أنا كنت أريد لها
الزواج من زمن ، لقد رفضت هذه المرأة الطيبة لتحسينا نحن بأنفسها
وعرقها وجهدها .. الله يباركها ، وينير لها طريقا جديدا .. فقط ..
أتمنى أن تكون سنوات صبرها وانتظارها تمهيدا لحياة سعيدة موفقة .

تأمل بها أمها بانبهار وتقول : أجل ما فيك يا أمى حديثك .. انه
ساحر . هل كان أبى يتمتع بهذه الموهبة ؟

عائشة وهى سادرة : لم يكن زوجى وحبيبى ، بل كان أستاذى ،
والآن يا حلو ، دادة ستسافر الى البلدة ، وأجائزة الصيف على الأبواب
!لم يحن الوقت كى تتعلمى الطهو ؟

مها وهى تقفز خارجة من الحجرة : ييه ! اننا لن ننتهى من المواعظ !
.. لقد نموت والعرسان يكثر عددهم فى كل عام يمر ، وخيبتك ثقيلة ،
ونعمات وفوزية أشطر ، وأنصح منك !

أرجوك يا ماما دعينى فى حالى أنا ما صدقت أن الاستذكار انتهى
فهل تريدن الأذى بالطهو ؟ ثم (تقززت ملامحها ، وفجأة تفلتت ناحية أمها
وتقول بتكبر . لو كنا ... لو كنت ...

تقاطعها أمها بهدوء : أعرف ما تريدن قوله ، لو كنت هناك معهم .. مع
عمتك وجدتك لاستخدمت أصعابك فقط فى صقلها وتهذيبها وتلوينها ..
الأيام ستثبت لك الكثير .

مها بتأفف : ييه رجعتا تانى للمواعظ !

تجلس عائشة على الكنية المريحة .. رفيقتها .. وتسند رأسها الحزين بكفها وتستعيد شريطا طويلا متقطعا لما أصابها من زمن .. وتتركز الذكرى في نواح معينة ، لقد فقدت أمها وأباها .. مشاعرها كانت تحن للأم ، أدركت ذلك تماما حينما كانت تلمح الحاجة حسنية وهي تهدد ابنتها سيدة وتجلسها على حجرها وتقطعها لقيماتها (الطعمة) بأناملها الفلاحي الحانية ، ثم « عقيلة هانم » التي ترنو لابنتها نبيله بوله تتمسكها وتحنو عليها ولا تبدو رقتها أو ليونتها الا مع ابنائها .

ان عائشة اليوم أم تجتاحها كل المشاعر ، مشاعر الألم المتكاملة ومشاعر الابنة المحرومة ، كل ذلك يتفاقم .. يستعر في نفسها ، في داخلها ، ليخرج آتونا من حب لا من لهب .. من بذل لا من تهديم .

انها تشاهد ابنتها وميوعتها ودلالها فتقبل وتقول : من يدري يا حبيبتي هل ساعيش لك الى مدى طويل ؟ كيف أثق في الأيام ؟ لقد فارقتني زوجي وهو في عنفوان رجولته وصحته ! كيف أعهد للزمن في تنشئة ولدي ؟

اما مشاعر الأنوثة والجنس فكيف ننكرها ؟ اننا نخفيها لكننا لانفعلها ، لقد سميت بمشاعرها ، خزنتها لتهبها فهل نجحت ؟ نعم ، لقد تخطت مراحل الخطورة لولا بعض الوخزات الصغيرة التي كانت تنتابها من حين الى حين في فترات متباعدة .

مضت فترة ليست بالقصيرة منذ رحيل دادة سيدة .. وعائشة تطوف بالحجرات كالفراشة ، تتفنن في صنع الأطباق اللذيذة (البيتي) ليأكل منها محمد وتذوقها مها ثم تمصص يشفتيها وتقول تدأب أمها : انك سيدة بيت ممتازة لكن ... (ثم تشير بأصبعها) لاتحاولي اقناعي بأن آرث منك هذه الموهبة ، وبالمناسبة يا أمي لقد دعوت عمي (حسن) للعشاء .

يخطب محمد بالسكينة على المائدة وتبرق عيناه ثم يؤنب أخته قائلا : قلت لك ألف مرة : لاتصرفي دون اذن أمي أو اذني أتعهمين ؟ انك أصغرنا عقلا وسنا ، ثم يلتفت الى امه هل يرضيك هذا التدليس ؟ انها وقحة وجريئة .

ثم يقوم من على كرسيه ليمسك بطرف أذنها يمركه حتى يتلون فيصير أحمر كالدلم تقوم مها غاضبة من على المائدة وهي تبكي ، تخرج وراها أمها لتهدئتها . يهمهم محمد صاخبا: دلج بنات وأم حنون أكثر مما يجب .

تهمس مها لامها مساء ، لن أوافق على ظهورك الليلة الا اذا ارتديت هذا الثوب ، تنظر عائشة الى الثوب الأرجواني وتصرخ : هل جننت يامها ؟

ترنو اليها مها بمكر طفلي وتبتسم ثم تتركها بمفردها .

تتأمل عائشة خيالها في المرأة وتنفضه ، تبدأ برأسها . وأكتافها العاجية المستديرة ثم خصرها النحيل المحد ثم ساقها الملفوفتين في افتتاح وفجأة وبعد أن تملأ عيونها من محاسنها تجزع !

ترعد الى لاشيء لقد تأملت نفسها من قبل في ظروف معينة تتذكرها الآن : منها عندما فاجأها شيطان يدعى (عادل) استهوته محاسنها فتركته يتلظى بسعير الهرمان ، ومرة أخرى عندما كانت عروسا حلوة براقعة والآن انها لا تزال تحتزن مدخراتها لكن لمن ؟ لمن ؟ لعله الدافع الذي أجبرها على أن تتجاهل ما وهبته لها الطبيعة بسخاء ، تتأمل ثوبها الأرجواني المكشوف والذي كانت لا ترتديه الا لنصفها الحلال . وتتصارع نفسها .

انها ليست فقط مليحة ، لكنها اكتسبت النضج . النضج الذهني والبدني ولأنها تعرف تماما ثروتها خدعت نفسها أوهمتها أنها أصبحت في عداد الملابس المخزونة التي تفوح منها روائح (النفثالين) لا روائح الشباب والصبا .

لم تكن تدري أن الاعوام التي تخطتها وكادت تقترب بها من الصام السادس والثلاثين زادت من خطورتها تلاحقت أنفاسها وارتعش بدنها وبأناملها الرقيقة شدت ثوبا رماديا من على (شماغته) وقورا ابن حلال وقالت من بين شفيتها : ساغريك بالأسود ارضاء لها !

في الصالة المسيحية تقبع مائدة للطعام مستطيلة (مازال بها الرmq) عليها صحاف لطيفة متوسطة الثراء أما طعامها فهو لذيذ شهى ، تترأس هي المائدة وأمامها في اتجاهها من الناحية الأخرى (عمو حسن) الذي تدلله مها بقولها (زارع بصل) أما محمد فهو بجانب أمه ومها بجانب عمها .

العم ينهل من محاسن المرأة الناضجة ومحمد يراقب أمه . ومها تتأمل عمها .

تعتذر المضيئة للضيف بقولها : ليس لدينسا خادم أو خادمة فقد رحلت عنا سيئة الطيبة .

حسن مبهورا : هل كل هذا من صنع يديك ؟

هى بتواضع : انه شئ لا يذكر بجانب تشريفك لنا .

حسن محولا حديثه الى مها : ما رأيك يا مها ؟ هل تساعدن ماما ؟

محمد منتهزا الفرصة : نعم ، انها تجيد اطلاق النكات ، احببت
النكات ؟

حسن مقهقها : على أية حال ، هى أيضا رسالة لا يستهان بها .

محمد (جادا) : ماما ضعيفة ، ولا يفرك تظاهرها بالنشاط ، لقد
مرضت الشهر الماضى ، ولازمت الفراش فترة طويلة ، عاها الطبيب
ونصحها بالراحة ، لكن هذه (ثم أشار الى أخته ولهيب من نار يطل من
عينيه) لا تحرك ساكنا ولا تفزرو قلبها الرحمة .

مها محتجة : أو تريد أن تفهم (أنكل) ان لك قلبا رقيقا عطوفا
أكثر منى ؟

محمد : برغم أنك ، تصور يا عمى اننى أساعد ماما فى المطبخ ! بل
وأجيد طهو بعض الاصناف ! كل ذلك من أجلها أو ليستت جديرة بأن
نخفف عنها ؟

عائشة محاولة تغيير دفة الحديث : كلاما يبالغ يا حسن بك والآن
مارأيك فى هذا الصنف من الحلوى ؟

أقدام حسن تطأ أرض الطابق كثيرا ، وفى الفترة الأخيرة يجيء فى
أوقات تكون مها فى الخارج وكذا محمد .

أحسبت عائشة ببوادر الخطر وبخاصة عندما لمست فى صوت حسن
نبرات مرعوشة ودفئا محسوسا فى يده ، عندما يعتمد أن يسلم عليها
ويضغط كفها .

وفى احدى الأمسيات فى الشرفة وضوء القمر يتسلل بحذر .. ونور
من الداخل يضيف بهاء مستحبا يقترح عليها أن يتنسما هواء المساء المعطر
بزهو الحريف ، يبدو عليها الارتباك وتجدها نفسها تسير كالمسحورة الى
الشرفة وتمدها مشيرة الى الكرسي (الاسيوطى) ذى الوسائد اللينة ،
وتجلس هى قبالة فى كرسي آخر أقل راحة ، ولما تتأمل مجيء الذى يضاء
جانب منه ويغيب الجانب الآخر تتذكر فجأة أن هذا الكرسي كان محببا الى
أخيه ، فتقوم مرتبكة دون أن تفكر مليا وتقول بصوت هامس فيه بحة :

- كان المرحوم يجلس عليه •

يحس هو باحتجاجها المتوى فتتقلص ملامحه وتعلن أحاسيس الغيرة،
يقوم من على الكرسي ثم يذهب ناحيتها ويمسك يدها قائلا بالصوت واللهجة
نفسيهما :

- أو كان يفضلني ؟ أما زلت تحبينه ؟

ثم يقرب سحنته منها ويتشمم عطرها الخالم وينهل من ضوء عينيها
الناعستين ويلمح شفيتها المنفرجين نصف انفراجة ولا يملك نفسه •

أحس بحبها بفزوه، يفزو قلبه ووجدانه وجسمه، أما بوادر الغيرة
التي اجتاحتها فقد ألهمت فيه سعي الرجل المطارد ! فأمسكها من كتفيها ثم
انهال على شفيتها تقبيلًا ••

وفي أقل من دقائق تفر من أمامه لتدخل الى الصالة وفي نورها
الساطع ترتد الى الواقع مع دقائق قلبها الذي دفنته من زمن •• ها هو ذا
يدق ثانية بعنف باحتجاج مطالبها ببعض حقوقه صارخا •• مازلت أعيش
•• مازلت أدق !

أما حسن فيحس بما فعله ولا يجد فيه غضاظة •• يمشي في ركبها
ويناديا : عائشة •

تفضي ورأسها الى الأرض •• ينظر الى أقدامها ليناديا ثانيا •• ثم يكرر
النداء ، وإذا بها تبكي ، يذهب ناحيتها ويمسك بكلتا يديها وبأصابعه
يرفع ذقنها الدقيق مبتسما يهددها ويقول : ماذا أصابك يا حبيبتي ؟

أخيرا تجد صوتها فتقول : كيف تجرؤ ؟

في قومة واحدة يقف مستويا شامخا ويسألها : لو لم أحس بتبادل
مشاعرنا ما تجرات !

ترفع وجهها ، وجها مخضلا بالدموع •• دموع اليأس •• الفرح ••
الحب المباغت •• دموع الندم •

يتأملها ثم يقول في نفسه : عرفت الكثيرات من كل لون ، من كل
بلد • من كل عمر ، لا أكاد أرى امرأة حقيقية الا هذه •• انها من أبحت
منها ، لكن أخى ويهمس لنفسه : هل هو الذي يقف حائلا بيننا ؟

وإذا بالجرس يدق ، ويدخل محمد ، قائلا : أهلا •• عمو ••

استطاعت عائشة في فترة من فترات انفرادها بنفسها أن تواجه ما
حدث ، انها امرأة مليحة •• وقد حدث تجاذب بينها وبين حسن •

حسن يصغر (حسن) بكثير ٠٠ وفي عينيه رعونة ، وحيوية ٠ علاقتها بحسين كانت تغمرها بمشاعر الابنة نحو أبيها والصديقة ازاء صديقتها والاكثر من ذلك الثقة والتقدير ، كل مقومات الزواج تألفت واتحدت فنجح زواجها نجاحا باهرا ٠٠ أما حسن ففيه شيء يخيفها ٠٠ ان مايشدها اليه هو أنه رجل وأنها امرأة ٠

حقيقة انه رقيق ناعم ، جازاك الله يا محمد ٠٠ انها الآن تتذكر تعليقه ، ولكن ٠٠ ولكنها لاتستطيع أن تمنحه كل ثقتها ٠٠ من ناحية مها مضمونة تكاد تجزم بأنها ستبارك زواجهما ٠٠ ياالله زواجهما ؟ وهل عرض عليها الزواج ؟ لكنها من الفئة التي لايمكن الارتباط بها الا بمواثيق الزواج ٠

وهل أراد حسن أن يشدها بعهد بينهما ؟ لعلها تسبق الحوادث على أية حال ٠٠ أمر محمد ليس بالهين وبالرغم من أنه يفقد (الرجل) في أهل أبيه فهو - لا يرحب - ترحيبا حارا به ٠٠ انها شبكة ٠

الغريب والجميل أيضا أن (حسن) لم ينقطع عن الزيارة بعدما حدث بينهما أخيرا في الشرفة ٠

لكن هذه الزيارة بالذات لا تستطيع أن تنساها فقد كان ابنها معها وتشعبت الأحاديث واتخذت نواحي متعددة كانت تلمح في عيني محمد معاني معينة استطاعت أن تلم ببعضها عندما انبرى لسمه قائلا : اسمع لي بسؤال ؟ ويتسم حسن ابتسامة رائقة ويجيب : ان ذلك يسعدني كثيرا ٠

يتملح محمد في كرميه ثم يقول : كيف تقضى يومك ؟

يرفع حسن حاجبيه متعجبا ويقول : وكيف تقضيه انت ؟

محمد : (بثبات) كما يجب أن يقضى ، في فترة الدراسة اذهب للمدرسة ، وفي البيت استذكر ، وفي فترات الراحة أرتاح ، ولعمل الراحة بالنسبة لي تكون في الاطلاع على كتب أبي الرائعة بعضها في العلوم والبعض الآخر يشمل الآداب والفنون والجغرافيا والتاريخ ، وعلى ذكر التاريخ ما رأيك في السياسية ؟

تتيقن عائشة أن السؤال الأخير كان الطعم ، ٠ وعندئذ تتيقظ حواسها لتراقب المناورة ٠

يستطرد محمد في حديثه قائلا قبل أن يجيب عمه عن سؤاله ٠ أرايت ؟ ان هناك اختلافا واضحا بين وقتي ووقتك ، لقد انتهيت

انت - من الدراسة والتحصيل من زمن فالتمس لي عفوا لسؤالى الذى لم أجد له جوابا حتى الآن .

لم يكن حسن غيبيا ، لكنه كان يمثل فئة بعض الرجال فى ذلك الحين وهو حوالى سنة ١٩٣٧ وقد كان وده طبيعيا عندما قال : أنتم تجرون وتلهثون لتحصلوا على لقمة العيش فى صورة وظيفة ، اما أنا (ثم قبل ظهر يده وباطنها) والحمد لله فى بحبوحة من العيش . ايراد شهرى ثابت قلم (وجع الدماغ)؟

تبدو على سيماء محمد بوادر رجولة مبكرة فيبتسم ثم يقول : الا تشعر يا عمى ببعض الملل وانت تروح وتجيء فى بيتك دون أن تعمل ؟

حسن : من قال اننى أروح وأجىء فى البيت ؟ اننى أروح وأجىء فى النادى ؟

محمد : آه ! وماذا تعمل ؟

حسن وقد بدأ يقلق : تعمل ، تعمل ، لماذا اعمل ؟ ولن ؟

محمد : (بصوت عال) تعمل لانك انسان ، ولن ؟ لبلدك .. الى ولغيرى ، كلنا نعمل ، نحن نأكل وننام ونعمل ، لا نستطيع أن نأكل فقط وان ننام فقط وأن نعمل فقط والا فما معنى أن نعيش ؟ ولماذا نعيش ؟

لكل عمل لذته وبهجته ومتاعبه التى تهون فى سبيل الهدف الذى نسعى اليه . أنا أحب بلدى ، ناسى ، وطنى ، أهلى ، سألتحق بكلية الحقوق لأدافع ممن لا يستطيعون الدفاع عن انفسهم .

حسن : (بهدوء) انها ثورة الشباب سرعان ما تنطفئ ، . انك تحدثنى الآن بملء حريتك . لكنك لاتستطيع أن تجاهر بذلك فى الشارع .

محمد : ولماذا ؟

حسن لاننا محكومون مكبلون بالاغلال وسنبقى هكذا . (١)

محمد : الشطر الأول أوافقك عليه ، محكومون مكبلون بالاغلال ، هذا حق .. أما أن تبقى هكذا فمما لا أوافقك عليه .

حسن : ماذا فى يدنا أن نصنعه ؟

(١) بالطبع هذا الحوار قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ اذ كان فى أواخر العقد الرابع من

محمد : ان نحتج .. ان نثور .. ان نتكلم .

حسن (بسخرية) : كان غيرك اشطر ، ثورة عرابي كفاح مصطفى كامل .. مثلا .. ماذا كان مصيرهما ؟

ثم ربت على كتف محمد مبتسما : ألم اقل لك . انه حماس شباب سرعان ما يفتر !

محمد : (وقد أصابته قشعريرة موجهها كلامه لأمه) طالما هؤلاء (وأشار ناحية عمه) يرضون بالدلل والمهانة ويوهمون أنفسهم بأن المسألة « مسألة قضاء وقدر » .. فلن نخرج أبدا من الأحوال .

سيدى .. نحن نحارب جبهتين : جبهة الاستعمار ، وجبهة الطبقة الحاكمة التى تفرق بين فئات وفئات ووالله ان الجبهة الداخلية (المصيبة) أكبر وافدح) يؤسفنى أنك تتحدث بلغة لا .. ولن أفهمها . لست بأخ أبى !

حسن يسبيل أجفانه ثم يفتحها كمن يستيقظ من نومه ويرشق ابن أخيه الذى مثل أمامه العزة والكرامة المجروحة ويصوب اليه سؤالا يتخيله يكاد يصيب الهدف ، يصحب ذلك همس كأنه حفيف أوراق الشجر التى حركها شيء ما !

— ما الذى فى رأسك ؟ أمنى ما الذى تتخيله تقريبا ؟

يقول محمد متخيلا نفسه فى موقف مع أخته الرعناء بعد أن عفا عنها وهى تهذر : قناة السويس أسمع عنها ؟ ثم يتراجع عن سؤاله بعد أن لمح نظرة محذرة من أمه : من الذى حفرها ؟ من الذى عرق وتعب ولهث وصام ولم يأخذ أجرا عنها الا فقدان حياته : الانجليز ، ام الفرنسيون ، ام أجدادك النبلاء ذوو الدم الأزرق ؟ شيء آخر لقنائه فى دراستنا ، ان بلادنا زراعية فقط ! ليس هذا فحسب ، بل قيل لنا انها زراعية (من تحت الضرس) تماما كمن يلقي الى كلبه قطعة من اللحم الشهى الملبسة بالمعظم ليس فيها مايصيبها الا انها عفنة ، ويجب على الكلب بعد ذلك لا أن يلعق البقايا فقط بل يلعق حذاء سيده ! لأنه تعطف وتنزل وانحنى ليقذف باللحم العفن من بين أصابعه الصنوبرية المعطرة .. هل تخيلت مرة انه من الممكن ولن أقول من الممكن جدا أن تصبح بلدك بلدا صناعيا فى يوم ما ؟

انت الذى تباهى بأسفارك للخارج وتقول : ما أجمل لندن بضبابها
ودخان مصانعها ! ستكون لدينا مصانع دون ضباب .

عمى «قالها بتأفف ، كمن لا يستطيع الفرار من لون دمه» : هذه
التمنيات ستتحقق ولكن - قطعا - ليس على يد أمثالك !

وهنا خرج صوت العم الساهر : نعم ، أمثالكم انتم أيها الشباب .

أشاح محمد بوجهه الى لاشيء كأنه يناجى طيفا في عالم الخيال :
أتخيلك الآن فى طيات السحاب وانت فتى مشبوب الأحلام تقى الفؤاد
صلب الإرادة مسلح بالإيمان تخطر إلينا فى يوم ما لتقدم لنا ما عجز عنه
الأولون ، أننى لا ولن أفقد أملى أبدا .

عائشة وقد أحست بأن دورها يقتضيها أن تتكلم : محمد ، دع
عمك فى حاله . وان كنت مؤمنا بما تقوله فابق على إيمانك ودع غيرك
يعتق ما يعتق .

حسن وقد استرد كل أعصابه : فى الحقيقة يا عائشة هائم أنا لا
أحب التحدث كثيرا فى السياسة ، ما رأيكم فى أن نذهب الى سينما
(رويال) بها فيلم لطيف لجريتا جاريو ؟

ويهز محمد كتفيه باستهزاء علامة الرفض .

فيقترب منه عمه قائلا : اسمع يا محمد ، أفضل. أن تتناول كتابا
من مكتبة أبيك . ولكن فى السياسة .

يتحول محمد الى أمه قائلا : ماما ، لن تذهبى الليلة الى السينما.

يعطرق حسن باب عائشة ، بعد أيام طويلة منذ تلك المشاحنة الهائلة
من طرف وصاخبة من طرف آخر ، تتامله عائشة وتراه فى ثوب جديد،
وتجد أن (حسين) هو حسين وليس بحسن وأن (حسن) هو حسن
وليس بحسين مع أن أهمما واحدة ، . بخطو خطوة ، . ويتخلف خطوات
وتعرف أنه تعمد المجيء صباحا لأن ولديها فى دراستهما ، وهى نفسها
لا تعرف ما بها . أن قلبها يخفق لرآه .

وتفتقده كثيرا حين يغيب ، لكنه اذا ما حدث ابنها فكانها تقارن بين
حسن و حسين وشتان ما بين الاثنين !

يبتدرها بقوله : عائشة لعلك تفهمين ما النهاية ؟

وترد بإبتسامة وثيدة : ماذا تريد يا صديقي ؟

حسن : أخى ، وصديقى اسمان لطيفان ، لكن ألا تستطيعين أن تنادينى بياحيبى !

عائشة : ...

يقترّب منها ويريح خصلة من شعرها تغطى أعلى جبهتها ثم يتأملها مليا .

عائشة وبهدوء تظهر كل جبهتها ثم تسأله : ما بك ؟

تلح عيناه ويقول : لا شئ ما الذى دفعك لأن تشوهى جبهتك هكذا ؟

هى بصوت طبيعى : شقاوة اطفال . اطفال القرية .

حسن : آه .. هل .. هل مكنت طويلا فى القرية ؟

عائشة : حوالى ثماني السنوات .

حسن متاففا (مع أنه جاهد كي يخفى ما به) وهل كنت تخضبين اقدامك وبديك (بالحناء) ؟

تقوم من على كرسيها متهمكة ثم تزوم : وتخرج صوتا (كالذى نخيف به الاطفال) وتفرد كفها لتقربه من وجهه تحاول اربابه ، أو تكبره بالذى يريد أن يفر منه .. دون أن يعي .. يقفز الى الحلف مرتاعا .

وهنا تتبدل الأوضاع وتتخذ هى صورة المرأة السيدة الأبية ، فتقف شامخة . مرفوعة الرأس ، وأخيرا تبتسم ثم تسأله : ماذا تقترح يا حسن بك ؟

يفمره خجل ويحس بأنه اشتط ، فيقول محاولا تبرير تصرفه : كانت لنا دادة ونحن اطفال صفار لها وشبم عيروها به ، فاستعملت (ماء النار) لازالته ونجحت صديقتى لم يبق له اثر اطلاقا الا للفاحص المدقق لعله يخمن أن موضعه كان جرحا ثم اندمل .

تشير اليه بيدها قائلة : ما حديثك الذى بدأت به منذ أن جئت هذا الصباح ؟ هل لك أن تتمه ؟ يستيقظ ، يفيق ثم يقول : بعد أن تألفنا . احببت أن اتخذك زوجة ورفيقة وولدا أخى هما ولداى لعلك حدثت ؟

هي : تستحقه بكبرياء : وماذا بعد ؟

حسن : فقط ما أشرت عليك به .

هي : وهو ؟

حسن : هذا الوشم الذي لا معنى له .

هي : وإذا أبقيت عليه .

حسن : ولماذا ؟

هي : قلت لك إذا فرض وعن لي أن أتمسك به دون إبداء أسباب
أو أعذار فماذا سيكون موقفك مني ؟ ولن أسألك : هل قيمتي في مظهري
لأنك لن تفهم السؤال .

حسن : أخشى أن أقول .

هي : (متحمسة) ولماذا تخشى ؟ دعني أرد بدلا عنك فالشيء
الوحيد الذي لم يتخل عنى هو شجاعتى ، أنك ترفض أليس كذلك ؟
أذن دعني أطمئنك . أن الرفض هو الشيء الوحيد الذي اتفقنا عليه
فليس فيك ما يعرضني عما فاتني واننى أرحب بك جدا كم لولدى فقط .

تمضى سنوات لعلها طويلة أو قصيرة يتحرج محمد من كلية الحقوق
ويحاول أن يفتح مكتبا يديره للمحاماة انه حاليا .. يعمل مع أحد المحامين
المرموقين فما زالت هناك بضعة أشهر يستطيع بعدها أن يفتح مكتبا خاصا ،
مها يزداد جمالها وتآلقها وحيويتها أما عدم مبالايتها فهو شيء واضح .
وخاصة في معاملتها مع أمها .

عائشة تجتاز مرحلة دقيقة فهي قد تعدت الأربعين .. تنتابها أزمات
مرضية من الحين للحين ، تحاول إيهام نفسها انها ثوبات عرضية ربما
تزول ، الطبيب يعودها - بعد الحاح من ابنها . يطمئنها وهو شيء طبيعى
مهما كانت الحالة .

مها لم تنته بعد من مرحلة التحصيل .. بعض النوادي ترتادها مع
فتيات من أترابها معظمهن تعرفت به في سراي عمته .

هي لم تنقطع قط عن زيارة بيت أهل أبيها طيلة تلك السنوات ،
وتجالس عمها كثيرا وجدتها وأحيانا تسأل نفسها : لماذا لا يزورنا عمي

كثيرا كدأبه من قبل ؟ ولماذا لا تحاول أمى من ناحيتها ان تشجعه ؟ لقد كان يخيل اليها فى فترة معينة أنه سيحدث بيدها شيء !

حقيقة أن الجدة والعمة لا تبادلانها الزيارة ولكن وماله ؟ اليسى هى الصغيرة ومن واجبات الصغار ألا يدققن كثيرا فى تصرفات من هم اكبر منهم سنا ؟

أشد ما تكرهه مها أن تعمل بالبيت ، أن ملابسهات تسسخ واصابعها تصاب بالقاذورات ثم رائحة البصل . . ياه ! وأخوها لايفتا يعكر عليها مزاجها ويتكهن لها بسواد المستقبل ، أما أمها ، أمها هذه الكائنة العجيبة . انها مثالية أكثر مما يجب ووقور أكثر مما يجب ، ومليحة بكبرياء أكثر مما يجب ، لكنها - والحق يقال - كأم أكثر مما يجب . . تسامحها دائما وتعفيها من الاعمال حتى الخفيفة منها دائما وتقابل رعونتها وحماقتها بابتسامة قلبية دائما .

لكنها أحيانا تهمس اليها وقلها يتوجع . ألا تحبيننى يا مها ؟
زياراتك وتوددك لأهل أبيك ليسا عيبا ولكن لماذا لا تفدقين على - ولو بالفتات - أو لست أمك ؟ هل قصرت فى حقك ؟ فى أزمات مرضى ربما تتألمين قليلا ، ولكن الرحمة ، الحنان لا أشاهدهما فى عينيك لماذا ؟ لقد كان أبوك عطوفا رقيق القلب !

عائشة ملازمة الفراش، وجهها شاحب لا تظهر منه الا عينان واسعتان مكحلتان (ربانى) شفتاها لا لون لهما . تجمع شعرها الفاحم الذى لونه بعض الخيوط البيضاء فى منديل حريرى كسج يكاد يصل الى منتصف ضفائرها ، ومنذ ذلك اليوم أزالى . قصة شعرها - وبذا وضع نور جبينها الذى يتوسطه ذلك الوشم الأخضر .

محمد يجلس بجانب سريرها يمسك يدها البضة الناعمة وبذلك أصابعها ويهمس لها : ألم تحنى يا أمى الى يدى اللتين أدلك بهما ظهرى ؟

تبسم المرأة الطيبة بحنان وترد : لم يعد فى نفسى يا محمد ، يخيل لى أنك لو لامستنى فسينقسم ظهرى أحس به كلولح الزجاج المشروح !

محمد وهو يمسك بوجنتها مداعبا : ويحك من هذا الدلال - كلها يومين - وتقومين بالسلامة تصولين وتجولين .

هى ضاحكة : المهم يا محمد كيف حال العمل عندهم بالمكتب ؟

محمد : بعض الكتبة مرثمون والاستاذ المحسامي ذكي وقلمه في كتابة المذكرات قوى الحجة ، الدنيا يا أمي لا تعجبنى وخاصة الآن بعد أن اندمجت - بحكم مهنتي - فى خباياها .

عائشة : ألا أخبرنى يا محمد فى آخر مرة ماذا قال لك الطبيب عني ؟

يتيه محمد فى تأملاته ويستعيد الحديث الذى دار بينه وبين الطبيب المماذج الذى أسر اليه - فى النهاية - أن أمه تحتاج - كثيرا - لراحة تامة والا تجهد ذهنها أكثر مما يجب وهو قد حدس بأنها مصابة بمرض السكر وضغط الدم .

يتنبه أخيرا لسؤال أمه فيقول لها : درجات بسيطة فى ضغط الدم ارتفعت عليك بمعاملة تعاظم الدواء - الأقراص - والطعام المسلوقة والمالح القليل . كلهما أشياء بسيطة ، هل تصدقين أن زميلا لى متصاب بالمرض نفسه عمره يكاد يقارب عمرى ؟

تمر بعض الليالى . تزداد وطأة المرض على عائشة فى أمسية تنادى بصوت واهن ، تهول ابنتها إليها وتناولها كوب ماء ومعه بعض الأقراص التى أمر بتعاطيها الطبيب ، ترنو عائشة إلى مها بحب كبير تطرف أهداب مها وتلمع فى عينيها بعض قطرات الدموع ، ثم تنسحب من جانبها كالطيف بعد أن تسألها هل تريدين شيئا ؟

تهمس عائشة مناجية نفسها : أفلا بد أن يشتد على المرض لى تحبيننى يا ابنتى ؟

ثم تنظر الى السقف والجدران وتشبم الهواء وتواصل مناجاتها وكان شيئا ضخما ثقيلًا يضغط على أنفاسها ، ويثقل على صدرها . أحس بالهواء وكأنه دخان رمادى قائم ، والسقف كأنه يظللنى ظل الغناء ، أما الجدران فتضغط أعضائى وتسورنى كأنها التابوت ، كيف بدأت حياتى ؟ وكيف واصلتها ؟ وكيف سأتمها ؟

أحس بالآلم يمزق مفاصلى والحزن يخيم على بصرى وأنفاسى ، لو قيل لى : أن مها فى احتياج الى بريق عينيك لنزعتهما من محجرتيها حتى تستضىء وترضى !

أما محمد فماذا أقول ؟ دعواتى تصحبك فى غدوك ورواحك . فى مأكلك وملبسك ، وحزنك ومرحك ، حياتى فداك يا محمد !

لم لا تعجل بى ياربى حتى لا تضيق بى مها ؟ فأسبب لها حزنا هذا
الحزن الذى أضيق به وأمقته حينما ألج بوادره بين عينيهما .

بودى أن أقوم من فراشى .. من لى ببعض العافية التى مكنتنى - فى
وقت ما من أن أشيد بيتا حبيبا ، لن أذهب الى مها الآن فالمسكينة لم تنب
بعد - الفترة الكافية ، أما محمد فهو مرفؤنا جميعا .

تحاول الجلوس فى فراشها وتنشعر ببعض الدوار ، وكأن بالحجرة
دخانا كثيفا يتجمع على هيئة كتل قطنية تشبه كثيرا الضسباب ، لكنها
تبتسم ابتسامة شاحبة ميتة وتمسك ركبتها تدلكهما محاولة احياهما
وتمد ساقها اليمنى وتقربها الى الارض - محاولة بذلك - أن تمد ساقها
الاخرى ليلحق بها ، تستند الى الحائط ثم تمسك - فى الظلام نصف
الحالك - ملمس المرأة وتتأمل ملامحها ولا تملك نفسها فتدمع عينها
وتحس بقصة محتجزة .. تأخذ نفسا طويلا .. لتطرده وتواصل سيرها
المتقطع الوثيد حتى تصل الى باب حجرة ابنها .

الباب موارب أيها الحبيب حتى تسمع صوتى فتهرول ناحيتى ؟

تسير بأقدامها الخافية سيرا كالذى تسيره فى الأحلام وتقترب من
فراش ابنها الأول وتجثو عند سريره .. وتدعو له من قلبها .. ثم تختتم
دعائها وتقول : هل فى استطاعتك يا أغلى الحبايب أن تحمى أختك وترعاها؟!

قرب الفجر .. ومع شقشقة العصافير وابتداء ظهور النور يسمع صوت
جسم ثقيل يرتطم بالأرض .

وتتردد فى أنحاء البيت أنفاس فردين فى عمر الزهور !

فهرس

الموضوع	الصفحة
القسم الأول	٣
القسم الثاني	١٩
القسم الثالث	٦٥
القسم الرابع	٧٧

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

36
4w



0494434

العدد ١٢٣

التمن ٢٥

١٩٦٥/٢/١٥